مركز دراسات الوحدة العربية

حفريات في الذاكرة

من بعيد

Bibliotheca Alexandrina
0017741

الدكتور محمد عابد الجابري

حفـــريات في الذاكرة

مركز دراسات الوحدة العربية

حفريات في الذاكرة

من بعيد

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التسجيل
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

الجابري، محمد عابد

حفريات في الذاكرة من بعيد/ محمد عابد الجابري.

٢٣٨ ص.

١. الجابري، محمد عابد ـ المذكرات. أ. العنوان.

928.927

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

المحتـويـات

تقـديـم ٧

الفصـل الأول ١١

الفصـل الثـاني ٤٥

الفصـل الثالث ٧١

الفصـل الـرابع ٩٥

الفصـل الخـامس ١١٩

الفصـل السـادس ١٣٩

فصـل فـريـد ١٦٧

نصـوص ١٧٧

حفريات في الذاكرة...؟

هل يتعلق الأمر بجنس في الكتابة جديد، أم بمجرد اسم آخر يضاف إلى قائمة الأسماء التي تطلق على جنس أدبي معروف منذ القديم، يسمى تارة بـ «السيرة الذاتية» وأخرى بـ «اعترافات»، وثالثة بـ «مذكرات»، مع ما يقيمه المختصون في هذا المجال من فروق بين هذه الأصناف؟

ليس من اختصاص كاتب هذه السطور، ولا من اهتمامه، الخوض في مثل هذه الموضوعات التي هي من اختصاص واهتمام نقاد القول الأدبي... كل ما يطمح إليه في هذا التقديم الوجيز، لهذا «المكتوب»، هو توضيح الطريقة التي حاول بها قراءة مرحلة من مراحل حياته الشخصية، هي تلك التي تمتد من الطفولة الأولى إلى الانخراط في «سلك الرجال». إن الأمر لا يتعلق بسرد «تأريخي»، لوقائع حياة شخص، يتوخى الاستقصاء ويتقيد بالتسلسل الزمني. كلا، إن الغرض من هذا القول هو، أساساً، القيام بعرضٍ وتحليلٍ، مع نوع من التأويل، لما يبدو لـ «الكاتب» ـ بالمعنى الاصطلاحي للكلمة ـ أنه يستحق، على وجه ما، أن يحكى وينقل إلى القارىء. وبما أن وقائع الحياة الشخصية، وكذا الاجتماعية العامة، تتحول بمجرد وقوعها إلى ذكريات في «نفس» الإنسان، تتراكم مع مرور الزمن وتتدافع، ويغطي بعضها بعضاً أو يخنقه أو يمحوه ويلغيه، فإن ما يبقى منها صامداً هو، حسب ما انتهى إليه كاتب هذه السطور بعد استبطان وتأمل، أشبه ما يكون **بالقطع الأثرية** التي تمكنت، بهذه الدرجة أو تلك، من مقاومة عوامل التحلل والاندثار، وسط ما تراكم عليها وحولها من مواد لاأثرية، لاتاريخية، فغدت تفرض نفسها على الباحث الأركيولوجي، الباحث المنقب عن الآثار، كمعالم وشهادات ذات معنى، لا أقول في

ذاتها، ولكن أقول، بالنسبة للمحلل الذي يعطي للأشياء معاني ودلالات معينة، مستنداً في ذلك، لا إلى ذاته وحدها، فهمه وميوله واصطلاحه ومراده، بل أيضاً وبالدرجة الأولى إلى كل ما يتشكل منه حاضره: بما فيه من رواسب الماضي ونزوعات المستقبل.

وإذا نحن شئنا الاقتصاد في الكلام، بتوظيف صورة أدبية والكف عن لغة التحليل النظري المجرد لموضوع نريد له أن يبقى القول فيه على السليقة ما أمكن، قلنا إن كاتب هذه السطور يشعر، حينما يلتفت وراءه ويحول ببصره وبصيرته، بعيداً عن حاضره، يشعر وكأن هذه السنين الستين التي مرت من حياته أشبه ما تكون فعلاً ـ وهذا تشبيه مبتذل ولكنه مناسب وجميل ـ بنهر... نهر يمتد منبعه بعيداً إلى منتصف الثلاثينات من هذا القرن حيث يتصل بروافد آتية من مسافات أبعد، تنقل إليه ابتسامات وانطباعات وتوضيحات اندمجت بصورة أو بأخرى في مجراه الخاص الذي يتسع حيناً ويضيق حيناً، يفيض ماء تارة ويجف أخرى، وهو يشق طريقه عبر معارج والتواءات ولف ودوران، حتى إذا مضى عليه ربع قرن أخذ في الانقسام إلى تيارين متوازيين، متداخلين ومنفصلين في الوقت نفسه: تغمر أحدهما تجربة سياسية، وتغمر الآخر اهتمامات وهموم ثقافية. ولا زال التياران يغتنيان... ويتنافسان في تكامل، أو قل يتكاملان في تنافس.

مشروع هذه «الحفريات» يطمح إلى التحقق كاملاً في ثلاثة أجزاء. أولها هذا الذي بين يدي القارىء، وهو يغطي ـ بل «يعري»، فالحفر الأركيولوجي تعرية ـ مرحلة ما قبل انقسام المسار إلى التيارين المذكورين: مرحلة الصبا والمراهقة وأوائل الشباب. إن المواد التي نتعامل معها هنا جميعها وقائع وقعت فعلاً. ليس هاهنا قصة ولا تخيل، ولا «خلق» ولا «ابتكار»... ولكنها كجميع «المواد» لا تنطق بنفسها إلا عن وجودها الزمني، إذ لا تملك إلا هويتها الوجودية... أما ما عدا ذلك فهو قراءة تحاول استنطاق معنى ما كان له معنى، وإعطاء نوع من المعنى لما كان يقدم نفسه بلا معنى.. تماماً كما يفعل عالم الآثار. ومن هنا اصطلاح «الحفريات» و «الحفر الأركيولوجي» وما في معنى هذه العبارات.

وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة ـ كما للقطع الأثرية ـ عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك **أولاً** السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة،

ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي... وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني»... إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والإشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة.

هذه التحديدات تخص الجزء الأول من هذا المشروع. أما الجزءان الآخران فلا يمكن الحديث عنهما قبل إنجازهما.. ولكل مقام مقال.

الدار البيضاء في شباط/ فبراير ١٩٩٧

محمد عابد الجابري

ملاحظتان

١ ـ باستثناء بعض الشخصيات التي ذكرت في سياق وطني، لاشخصي، اقتصرنا على ذكر أسماء الذين فارقوا الحياة من الأهل والأصدقاء ولم نذكر أسماء الأحياء تجنباً للإحراج.

٢ ـ نشرت هذه «الحفريات» في صورتها الأولى في جريدتي **الشرق الأوسط** و**الخليج** خارج المغرب، وفي جريدة **الاتحاد الاشتراكي** المغربية، نشراً متزامناً على حلقات، في الأسبوعين الثاني والثالث من شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. وقد تمت مراجعتها مع إضافات عند إعدادها للنشر في هذا الكتاب. أما النصوص فتنشر هنا لأول مرة. وقد رأينا من المفيد إدراج نص الحوار المشترك الذي أجرته معي كل من **الاتحاد الاشتراكي** ومجلة **المجلة** حول هذه «الحفريات» وكان قد نشر في شباط/فبراير ١٩٩٧.

الفصل الأول

ـ ١ ـ

يحتفظ الناس عادة، في أذهانهم ووجدانهم، بذكريات عن طفولتهم الأولى، ولكنهم في الغالب لا يستطيعون ترتيبها ترتيباً زمنياً، فذكريات الطفولة تمثل في الذهن والوجدان، عند استدعائها، متزامنة متزاحمة، وكأنها «حاضر» سابق لكل زمان. ومع ذلك فإن صاحبنا يستطيع أن يجزم مع نفسه بأن ذكريات طفولته الأولى تؤسسها جملة وقائع سابقة على غيرها، على صعيد الذكرى، وهو يعتقد أنه لن يرتكب خطأ إذا هو رتبها زمنياً كما يلي:

أما الواقعة **الأولى** فقد جرت عندما كان ما يزال رضيعاً يحبو: كانت أمه جالسة تغزل على شمس ضحى يوم من الأيام التي لم يكن يعرف بعدُ كيف يصنفها أو يسميها. كانت لابسة، كعادة نساء مدينة فجيج يومئذ، إزاراً رقيقاً من الصوف يسمى «الحايك»، يشد إلى صدر المرأة بعقدتين فوق ثدييها. ولم تكن النساء ـ نساء بلدته على الأقل ـ يلبسن آنذاك سروالاً ولا ما يقوم بوظيفة السروال. كانت المرأة تضطر دوماً إلى جمع رجليها في اتجاهين متقابلين عندما تجلس، ومعها غيرها، ستراً للمناطق الداخلية من جسمها. ولكن جمع الرجلين بهذا الشكل لا يتأتى عندما تكون المرأة بصدد غزل الصوف: فالغزل، كما كانت تمارسه آنذاك نساء بلدته، عملية تتطلب وضعاً جسمانياً خاصاً: تجلس المرأة ورجلها اليسرى مثنية على الأرض في اتجاه اليمنى أفقياً، أما اليمنى فتنتصب إلى أعلى حتى الركبة لتنزل على الأرض مشكلة زاوية منفرجة قليلاً. ولا بد أن تبقى الساق، من الركبة إلى القدم عارية، إذ عليه تدحرج المرأة صعوداً وهبوطاً، بباطن كفها الأيمن وبسرعة منتظمة، القسم الأعلى

من المغزل، فتدور بدورانه قطع الصوف المنفوش الذي سبق خرطه على شكل رقائق. وبفعل حركة المغزل الدائرية تتحول تلك الرقائق إلى خيوط مبرومة تلف حول المغزل في وسطه إلى حدود الحلقة الخشبية التي تركب قريباً من نهايته السفلى كحاجز يجبر الخيط على الصعود ثانية عندما تقوم المرأة الغازلة بحركة خاصة لهذا الغرض: حركة تتعاون على إنجازها الرجل اليمنى التي يتدحرج عليها المغزل واليد اليسرى التي تمسك بقطعة الصوف إلى أعلى، قريباً من عيني المرأة وعلى بعد نحو شبر منهما، بينما تتولى اليد اليمنى، بعد دحرجة المغزل، تسهيل ومراقبة عملية البرم بواسطة السبابة والإبهام.

هذا الوضع الجسماني الخاص والحركة التي تقتضيها عملية الغزل يجعلان رجلي المرأة عرضة للعري فتحدث فجوة ما بين اليسرى الممتدة على الأرض واليمنى المنتصبة على شكل زاوية كما قلنا. فإذا كانت المرأة الغازلة لوحدها أو مع أبنائها الصغار تعاملت مع هذه الفجوة بنوع من عدم الاكتراث. أما عندما يكون معها غيرها من أفراد أسرتها أو من نساء الحي فإنها تحشو الفراغ المذكور بما يفضل من حاشية إزارها التي تغطي رجلها اليسرى، بينما تلف الحاشية الأخرى على الرجل اليمنى حتى الركبة، أو قريباً منها، بحيث لا يبقى منها عارياً سوى الساق التي يتحرك عليها المغزل.

يتذكر صاحبنا بكل وضوح هذا الوضع الجسماني الذي كانت عليه أمه وهي تغزل حينما اتجه برأسه، وهو يحبو، نحو تلك المنطقة الوحيدة من جسم أمه التي لم تكن في متناوله، والتي كانت تشكل بالنسبة له المجهول الأكبر. والأطفال مولعون دوماً بالكشف عن الأسرار وارتياد المناطق الممنوعة. لم يشعر إلا ويد أمه تدفعه بعيداً عنها دفعة قوية عنيفة قضت على فضوله، وجعلته يحس بما يمكن أن يفسره اليوم بنوع من الندم، شبيه بذلك الذي يحس به من ارتكب خطأ واعترف به أمام نفسه. عاد يحبو جانباً دون أن يبكي أو يحتج، أو على الأقل لا يتذكر أنه صدر عنه شيء من ذلك. ولكنه بالمقابل يتذكر بكل وضوح أنه انتابه شعور غريب تماماً، شعور يمكن أن يفسره اليوم بكونه علامة على أنه كان قد أدرك لأول مرة، من خلال دفع أمه إياه تلك الدفعة العنيفة، أن أمه شيء وأنه هو شيء آخر. ولو كان يفكر آنذاك بعقله الذي يفكر به اليوم لقال في ذات نفسه: إن الولادة عملية غير قابلة للانعكاس، والعودة إلى الرحم هي أولى المستحيلات...

إن صاحبنا لواثق من صدق هذه الذكرى التي ترجع فعلاً إلى سن مبكرة.

نفسها من جديد في ذاكرته الحية، كلما شاهد أمه في مثل ذلك الوضع الجسماني وهي بصدد الغزل، فيحني رأسه وينصرف أو يتشاغل بشيء آخر، وكأنه يحاول نسيان ذلك المشهد. وذكريات الطفولة تخلد في الذاكرة بالتكرار، وبالتكرار يتم «الحفظ». وقديماً قالوا: «الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر».

إن أهمية هذه الحادثة، التي يتذكرها صاحبنا وكأنها وقعت قريباً جداً من «الحاضر»، ترجع إلى أنها كانت ـ في تقديره اليوم ـ تشكل بالنسبة له الفطام الأول، لا بل الفطام الحقيقي الذي أدى وظيفة «الفطام الرسمي» الذي لم يكن يشكل في حياة صاحبنا قطيعة ما.

كانت الواقعة الثانية، في زمن ذاكرته، هي هذا «الفطام الرسمي» نفسه، الذي تم بعد الواقعة الأولى بمدة، قد تكون شهوراً وقد تكون سنة. إنه يتذكر تماماً كيف أنه عاد من الشارع عصر ذات يوم، ليهرع كعادته، يجري على قدميه، نحو أمه ليرضع. لقد ارتمى عليها وهي جالسة تغزل قريباً من نفس المكان، متجهة هذه المرة غرباً نحو الشمس. ولكن ما إن أخذ ثديها الأيمن بيديه الصغيرتين حتى اكتشف أن حَلَمَته مكسوة بطبقة كثيفة من شيء أشبه بالطين، ولكنه لزج وأخضر. وقد عرف فيما بعد أنه الحناء. وقد كانت المرأة المرضعة تكسو بها حلَمتي ثدييها وقت فطام الطفل لجعله ينفر من الرضاعة. ويستطيع صاحبنا اليوم أن يراهن على أن نفوره من الحناء طول حياته يرجع إلى هذه الواقعة.

ومهما يكن فقد ترك أمه واتجه إلى ثقب مدور على السارية أشبه ما يكون بالكوة كان يخزن فيه متاعه الخاص (خبز، تمر، لعبة...). مدّ يده إلى داخل الثقب وأخرج قطعة من الخبز وانصرف إلى الشارع من جديد وهو يقضم منها.

إنه يتذكر هذه الحادثة جيداً. يتذكر أنه كان بالفعل يعود من الشارع، حيث يلعب مع أقرانه الصغار، ليرضع من ثدي أمه واقفاً أو منحنياً، ثم يرجع إلى أقرانه ليواصل اللعب. وحينما حدّث جدته عن ذلك فيما بعد قالت له: «بالفعل كان الأمر كذلك، فلقد رضعت أزيد من عامين ونصف...». والحق أنه يتذكر جيداً أنه كان يخلط بين الرضاعة والأكل. كان يأكل القطعة من الخبز أو اللقمة من الكسكس ليعود إلى ثدي أمه ينهل منه ما شاء له أن ينهل. لقد كان فطامه متقطعاً قابلاً للانعكاس لمدة طويلة. لقد كانت أمه له وحده، إذ كان أبوه قد طلقها وهو ما يزال

جنيناً في بطنها ولم يكن لها ولد آخر غيره ولا زوج آخر ينافسه عليها. لقد شبع أمه التي كانت له لوحده أثناء طفولته الأولى وكأن القدر ينتقم له، من خلال هذا الاتصال المستمر بها، من تلك الدفعة العنيفة التي أبعدته بها عن حجرها يوم كانت تغزل. . . لقد كان وحيد أمه، لا بل وحيد الأسرة. كانت أمه تعيش في بيت أبيها مع والدها وأمها وأخويها اللذين كان أحدهما يكبرها ببضع سنين، بينما كان الآخر أصغر منها قليلاً، وقد توفي بعد مرض طويل لا يذكر من أعراضه إلا السعال وضيق التنفس.

توفي هذا الخال وصاحبنا ما يزال صبياً، حتى إنه لا يتذكر منه إلا شحوب الوجه. أما حادثة الوفاة نفسها وما رافقها من دفن وحداد فلا يتذكر منها شيئاً، بل إنه يستطيع أن يجزم اليوم أن ذاكرته لا تحتفظ له بأي معنى من معاني الموت من هذه الحادثة التي تنتمي إلى ذكريات طفولته الأولى. وإذا كان يتعذر عليه الآن تحديد تاريخ هذه الوفاة تحديداً دقيقاً فإنه يرجح، مع ذلك، أنه كان يومئذ في نحو الثالثة من عمره. دليله على ذلك أن خاله هذا كان قد توفي قبل حادثة أخرى كانت وما زالت من الحوادث التي يؤرخ الناس بها، أعني انهيار سقف المسجد الكبير بقصر زناكة، سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠، وهي حادثة سنعرض لها في فقرة لاحقة.

وأما الواقعة **الثالثة**، التي يمكن وضعها فعلاً في الرتبة الثالثة حسب تسلسل زمن ذكرياته، فهي واقعة ختانه التي لا يزال يحتفظ منها في ذاكرته بمشهدين واضحين تماماً:

أولهما مشهد استلقائه على ظهره، وسط صحن الدار المفتوح على السماء، على شيء مرتفع أشبه بالطاولة، يحيط به جده لأمه وآخرون من بينهم رجل لم يكن غريباً عنه، أخذ يداعبه في فخذيه وفيما بينهما، ثم فجأة قال له: «انظر. . انظر إلى ذلك الطائر». وما إن اتجه صاحبنا بعينيه إلى أعلى حتى أحس بشيء كأنه وخز في عضوه التناسلي فصرخ. لكن صرخته ذابت بين زغاريد النساء اللائي كن يرقبن المشهد من على شرفة مطلة على صحن الدار. انتصب صاحبنا واقفاً يمشي وهو يباعد بين رجليه يمنة ويسرة، مذهولاً من ذلك الحشد والمنظر، لا يدري ما حدث بالضبط.

أما **المشهد الثاني**، الذي يتذكره بكل وضوح من واقعة الختان هذه، فهو نزوله من الطابق العلوي من المنزل لابساً ثياباً جديدة، بل عباءات عديدة، بعضها من الصوف وبعضها من الكتان، وعلى كتفه وعنقه سلهام (بُرنس) صغير مدلًّ على

جسمه. أما رأسه فقد كان يزهو بطربوش لا يذكر لونه بالضبط، أحمر أو أخضر، مزركش بخطوط بيضاء صغيرة. نزل وخرج إلى الشارع محاطاً بعناية كبيرة من بعض أفراد عائلته وجلس على مصطبة أمام باب المنزل يأكل من شيء في يده، لعله قطعة خبز أو كعكة ومن حوله أقرانه، صغار الحي، يتسابقون إلى الحصول منه على قطعة مما يأكل، وكان يوزع عليهم بكبرياء وزهو. ومع أن حادثة الختان هي من الحوادث «التاريخية» في حياة الإنسان، فإن صاحبنا لا يستطيع أن يدعي أنه يحتفظ في وجدانه بأية ذكرى نفسية عنها. كل ما يتذكر هو أنه كان محط اهتمام الجميع وأنه كان مزهواً فخوراً، وفي نفس الوقت مذهولاً مندهشاً.

ونأتي الآن إلى الواقعة **الرابعة**، من الوقائع الرئيسية التي تملأ الصفحة الأولى من صفحات ذكريات صاحبنا. إنها واقعة ترتبط بها عدة ذكريات تشكل في مجموعها معطى أساسياً من معطيات الشعور الذي كان يملأ أناه زمن طفولته.

كان أفراد العائلة يجلسون القرفصاء حول الموقد، كما اعتادوا أن يفعلوا كل مساء من أمسيات الشتاء انتظاراً لنضج طعام العشاء، الذي كان في معظم الأحيان عبارة عن وجبة جماعية من كسكس القمح الصلب مع اللحم والقرع، أو من كسكس الشعير مع «الكرورب» ـ نوع من الكرنب ـ كخضرة وقوائم الضأن أو رأسه، مكان اللحم. كان الموقد يتألف كالعادة من ثلاث أثاف تشتعل بينها قطع من خشب النخل. وعلى الأثافي قدر مملوءة ماء وخضراً ولحماً وتوابل، خاصة الفلفل الحرّيف ـ الذي كان أهل فجيج يستهلكونه بكثرة معتقدين أنه «يحرق» الكميات الكبيرة التي يأكلونها من التمر يومياً ـ وعلى فوهة القدر كسكاس، وهو وعاء مصنوع من دقيق سعف النخل على شكل أسطوانة منفرجة، مفتوحة من إحدى قاعدتيها وضيقة في القاعدة الأخرى على مقدار اتساع فوهة القدر، مع فتحات في وسطها تسمح بمرور البخار إلى داخلها لإنضاج ما فيها من الدقيق المفتول كرات صغيرة: الكسكس (وينطق بالأمازيغية: أوتشو).

كان الوقت مساء، كما قلنا، والظلام يخيم على جميع أجزاء البيت. لم تكن نار الموقد كافية لاختراق كثافة الظلام، فكان مصباح الزيت، المعلق على جانب الموقد قريباً من السقف، يحاول من جهته نشر خيوط من نور عبر ذلك الركام من دخان الحطب وبخار القدر وظلمة الليل. ساد سكوت لم يكن يشوش عليه إلا أزيز النار في الموقد أو حركات يد أمه التي كانت منهمكة في إعداد الطعام. وفجأة استرعى انتباه الجميع صوت في السقف شبيه بحفيف الأشجار، فالتفتوا جميعاً بما فيهم

صاحبنا الذي لم يكن عمره يتجاوز الرابعة، وإذا به يرى ما يشبه قطعة من حبل غليظ، تزحف في هدوء وكبرياء على حافة الجدار، تلامس السقف في اتجاه ثقب على الجدار المقابل. كانت طويلة رمادية اللون ذات عقد في جسمها الذي كان ينكمش قليلاً ثم يتمدد. أما رأسها فكان يميل إلى الصفرة لا يتحرك إلا لماماً. نظر أفراد العائلة إليها وقال أحدهم بكل هدوء وعدم اكتراث: «إنها الأفعى». أما صاحبنا فقد انتابه شعور بالخوف أول الأمر، ولكنه سرعان ما عاد إليه كامل هدوئه واطمئنانه عندما سمع جده يقول: «إنها صاحبة الدار، لا تؤذي أحداً، فلا تشغلوا أنفسكم بها». وبالفعل عاد الجميع بوجهه إلى الموقد وامتدت الأيدي نحو النار تطلب الدفء... ومع دخول بقية جسم الأفعى في غارها تلاشت وقائع هذه الذكرى.

وسيعرف صاحبنا فيما بعد أن الدار التي كان يسكنها مع أهله لم تكن ملكاً لهم وحدهم بل يشاركهم فيها كائنات أخرى. فإضافة إلى الأفعى، «صاحبة الدار»، كانت هناك الحيوانات المنزلية الأليفة. ونادراً ما تخلو دار في فجيج، وفي قصر زناكة بالخصوص، من بضع نعاج أو معزات من أجل الحليب وكبش أو كبشين للمسافدة، وأيضاً استعداداً لعيد الأضحى. هذا إضافة إلى دابة للشغل، حمار أو بغل في الغالب، أما الحصان فنادر. أما الطيور، التي كانت الأفعى تتغذى من بيضها وصغارها، وخاصة منها الحمام والعصافير، فقد كانت طليقة تغدو وتروح ثم تأوي مساء إلى أعشاشها التي تبنيها داخل الدار بين فجوات خشب السقف أو في ثقوب الجدران.

وإذا كان الأطفال الصغار يلهون عادة بالجري وراء العصافير التي تنقر الحب على الأرض فإن الأمهات والجدات ينشغلن أكثر بدلالات أصوات بعض الطيور التي كان منها «البشير» ومنها «النذير». وإن صاحبنا ليذكر جيداً كيف كانت جدته لأمه مشغولة إلى درجة الهوس بصوت العصفورة التي تسمى «تبشيرت» (حاملة البشارة) والتي كان صوتها يكاد يتطابق مع كلمة «يو.. سد» التي تعني بالأمازيغية «جاء» (رجع، وقدم من سفر أو غيره). لقد كانت الجدة تنشرح أيما انشراح لصوت هذه العصفورة التي كانت «تحمل» إليها بشارة قرب عودة ابنها من الجزائر حيث كان يعمل في السدود. ولم يكن تاريخ رجوعه مهماً، فالمهم أنه على وشك أن يعود، الشيء الذي يعني أنه الآن بخير وعلى خير. وإذا صادف أن جاء ساعي البريد يحمل رسالة منه في ذلك اليوم، أو في الغد أو بعد غد، فذلك هو الدليل القاطع على صدق العصفورة «تبشيرت».

ومن الذكريات التي تحضر صاحبنا الآن، بمناسبة الحديث عن الكائنات التي «تشارك» الإنسان في ملكية المكان، منازل وبساتين وغيرها، ذكريات تتعلق بالجن، وهم أكثر شركاء بني الإنسان أهمية. إنهم لا يُرَون في النهار ولكنهم يعمرون المكان ليلاً، فيقومون بنفس الأعمال التي يقوم بها أهل المنزل من البشر، يسمعهم أهل الدار يتحركون، يمشون ويدقون في جنح الظلام. والحق أنه ليعجب اليوم العجب كله حينما يسترجع بعض ذكرياته المرتبطة بـ «معاشرة» بني الإنسان في بلدته مع الجن. إنه يتذكر كيف كان يستيقظ ليلاً على دقات ترسل صوتاً أشبه بصوت الدق على المهراس أو على مسمار في الجدار، فينتابه الخوف ويلتصق بجسم من كان ينام بجانبه: أمه أو جدته أو جده. ولكنه سرعان ما كان يعود إليه هدوءه واطمئنانه عندما يقول له الذي بجانبه: «نم ولا تخف، إنهم فقط الذين لا يُسمَّون، إنهم «المسلمين» (= الجن) يقومون بأشغالهم، يدقون القهوة أو يثبّتون وتداً... فلا خوف منهم خصوصاً إذا تركناهم وما يفعلون بدون إزعاج». لم يكن الجن يسكنون المنازل وحدها، بل كانوا يسكنون أجسام البشر أيضاً: فلكل فتاة أو امرأة جنيها، ولكل شاب أو رجل جنيته. ويظهر الجني والجنية في صاحبهما بصورة علنية عندما تتعرض الفتاة أو الفتى لأزمة عصبية. ويتذكر صاحبنا كيف أن المختصين في إخراج الجني أو الجنية من جسم الشخص المصاب كانوا يمسكون يد هذا الأخير ويركزون ظفر إبهامهم على ظفر إبهامه ضاغطين عليه بكل قواهم وهم يحركون شفاههم، يقرأون التعاويذ وما أشبه...

في هذا الإطار تندرج خامسة الوقائع أو الحوادث التي تعمر وعي صاحبنا عند استرجاعه لذكريات طفولته الأولى. إنها ذكرى بقيت عالقة بذهنه، لم تفارقه أبداً. يتعلق الأمر بطفل من أطفال الحي خطفه الجن لأنه كان «زهرياً»، الشيء الذي يعني أن الخطوط المرسومة على راحتي يديه كانت على شكل خاص وفريد. وكان مثل هؤلاء «الزهريون» محط عناية فائقة، إذ كان أهلوهم يخافون عليهم من أن يختطفهم «المختصون» في استخراج الكنوز والذين يسخرون جنية الزهري لإرشادهم إلى مكان الكنز. غاب الطفل عن بيت أهله طول النهار. ولما لم يرجع في المساء تيقنوا أنه اختطف، فنادوا على شخص معروف باسترجاع المخطوفين من هذا النوع بواسطة العزائم والتعاويذ.. حضر هذا الشخص «المختص» وجلس بجانب الجذع الذي يمسك باب الدار على الأرض وحفر حفرة استخرج منها تراباً أخذ يذره يميناً وشمالاً متمتماً متعوذاً... حتى إذا انتهى انصرف مودعاً، مطمئناً أهل الطفل بكون

هذا الأخير سيعود إليهم بعد قليل سالماً. ومع ظلام الليل عاد الطفل إلى دار أهله وهو في حالة ذهول لا يدري أين كان ولا من أين أتى. ولم يسأله أحد عن ذلك لأنه لا يجوز السؤال في مثل هذه الأحوال والشؤون التي «تخص» الجن.

وبالجملة كانت الحياة زمن طفولة صاحبنا مجالاً يتقاسمه البشر والجن. كانت تربط بينهم علاقات لامرئية، في المنازل والبساتين والأسواق، يعملون ويشترون ويبيعون تماماً كما يفعل البشر. ومع أن نشاط الجن في المنازل إنما يكون خلال الليل فإن حضورهم في البساتين يكون في النهار وبالخصوص وقت الزوال عندما تشتد حرارة الشمس ويغادر بنو البشر بساتينهم إلى منازلهم. وإذا تأخر أحدهم في بستانه إلى حين توسط الشمس كبد السماء، حين ينعدم الظل ويسود السكون إلا ما كان من أزيز سعف النخل أو أصوات بعض الحشرات، فإنه لا يستبعد أن يصادف في طريقه «جنياً» حاملاً حطباً أو ذاهباً إلى البستان وبيده منجل وعلى كتفه منقاش. وهؤلاء الجن «العاملون» في البساتين وحقول النخل يتمثلون في شكل كائنات بشرية بلباسهم ومشيتهم، ولكنهم يتميزون بانعدام الظل، وبذلك يعرفون (معلوم أن الإنسان ينعدم ظله أو يكاد وقت الزوال). إن عالم الجن كان يلابس عالم البشر، لقد كانت بينهما ألفة ومعاشرة، لا بل صداقة وأحلاف. ولذلك فلم يكن الجن مصدر خوف ولا عنصر تخويف إذا التزم الواحد من البشر بقواعد السلوك المتعارف عليها وعلى صلاحها. ولعل هذا هو ما يرمز إليه هذا الحضور المكثف للجن في حياة الناس في مدينة ليس فيها شرطة ولا حراس ولا قانون مكتوب. لقد كان «الجن» وما يروى بصددهم وسيلة «ردع»، وسيلة تنظيم للحياة. إن الناس يغادرون البساتين، عادة، عند اشتداد الحر مع ميل الشمس نحو كبد السماء، وهو وقت نزول أشعة الشمس عمودياً على الأشياء فلا يكون لها ظل ممدود. ومن أجل قطع الطريق أمام اللصوص من البشر كان لا بد من إشاعة الاعتقاد في أنه لا يرتاد البساتين وسط النهار، أي حين مغادرة أصحابها لها، سوى «الجن» الذين يتميزون بانعدام الظل. لقد كان «الجن» موضوع توقير واحترام، وأيضاً عنصر ردع وتخويف، ليس للصغار وحدهم بل وللكبار كذلك. لقد كانوا يمثلون السلطة غير المرئية كالسلطة التي تمثلها «الدولة» اليوم في نفوس الناس عندما لا يكون هناك ما يجسدها...

ومهما يكن فلقد كان هناك إلى جانب الجن «شياطينهم» يؤذون الناس كـ «شياطين» البشر، سواء بسواء. وكان هناك، في المقابل، الملائكة، وكان من

مهامها مرافقة الإنسان الصالح أينما حل وارتحل، تحفظه وتبعد عنه كل ضرر مصدره الجن أو شياطينهم. ومن أجل أن تستمر الملائكة في مرافقة الشخص وحمايته عليه أن يذكر الله دائماً وأن يقرأ القرآن سراً أو جهاراً أينما كان، في البيت أو في الشارع أو في البستان. حالة واحدة لا يجوز فيها قراءة القرآن هي عندما يكون المرء بصدد قضاء حاجته في المرحاض أو ما يقوم مقامه. في هذه الحالة كان عليه أن يقرأ أدعية ويتلفظ بعبارات أخرى خاصة بالمناسبة. ولا يزال صاحبنا يذكر أن أحد معلميه في الفترة الابتدائية الأولى لقنه وأقرانه الدعاء التالي وطلب منهم قراءته مباشرة عند الفراغ من قضاء «الحاجة» ونصه كما يلي: «الحمد لله الذي أدخلنيه طيباً (= الطعام)، وأخرجه عني خبيثاً...». كان لكل مكان ولكل وضع ولكل وقت دعاء... لم يكن هناك فراغ.

تلك بعض مظاهر الحياة الروحية التي كان الناس في فجيج يحيونها فتقيم في نفوسهم التوازن المطلوب والاطمئنان الضروري. ومع أن كثيراً من هذه المظاهر منتشر هنا وهناك، في جميع البلدان وعلى مر العصور، إلا أن الناس آنذاك كانوا يعيشونها بـ «إخلاص»، فلم تكن مجرد اعتقادات من أجل «الحياة»، بل كانت هي الحياة نفسها، خصوصاً في مدينة معزولة على أبواب الصحراء، قليلاً ما يرتادها غريب أو يدخلها جديد. كان كل شيء فيها يرتبط مع غيره من الأشياء بعلاقة وشيجة، علاقة العشرة والمساكنة: الأطفال والأمهات والآباء والإخوة والأقارب، والحيوانات والطيور والزواحف والحشرات والجن والملائكة والقمر والنجوم، كل هذه الكائنات كانت تسكن فضاء واحداً تربطها مع بعضها علاقات الألفة والمعاشرة، علاقات «المعرفة»: الجميع يعرف القمر والقمر يعرف الجميع...

على أن القمر والسحاب والنجوم وغيرها من الكائنات الجامدة الصامتة تتحول إلى كائنات حية طافحة بالمعنى تقوم بأدوار معينة، على خشبة مسرح الحياة البشرية، يشاهدها الإنسان، وذلك عندما يكون في أحوال خاصة كحالة المرض مثلاً. وفي هذا الإطار يذكر صاحبنا ـ وهذه خاتمة ذكريات طفولته الأولى ـ أنه مرض، وهو في حوالى الثامنة من عمره، مرضاً لم ينتبه إلى خطورته إلا في مرحلة متأخرة جداً، حينما علم من بعض أصدقائه من الجيل السابق له، أن مرضه ذاك كان يندرج ضمن وباء عام، لعله الطاعون، كان قد أصاب فجيج في أوائل الأربعينات من هذا القرن. (قارن مع الطاعون الذي أصاب بعض المدن الجزائرية الغربية في الوقت نفسه وخلده الكاتب الفرنسي ألبير كامو في روايته الشهيرة **الطاعون**).

مشهدان تحتفظ بهما ذاكرته عن هذا المرض. **الأول** هو كثرة الموتى. لقد غدا الموت في تلك الأيام ـ وربما الشهور ـ عنصراً عادياً من عناصر الحياة اليومية يدخل ضمن «الكائنات» التي تعمر المكان والزمان مع كل ما يسم الحياة في ذلك البلد من رتابة وتكرار. لم يكن الناس يتحدثون عن الموت آنذاك كما يتحدثون عن «الغائب» أو النادر أو المخيف، بل كانوا يعيشون الموت في كل لحظة. لم تكن الحاجة إلى المآتم قائمة، فالبلد كله في مأتم، مأتم رتيب صار جزءاً من المألوف اليومي: في كل يوم، وفي كل حي، وفي كل زقاق، مغسل وكفن ونعش على أكتاف بضعة أفراد، يذهبون به إلى المقبرة ثم يعودون للمساهمة في نقل نعش آخر.

يتذكر صاحبنا جيداً كيف كانت هذه النعوش تمر في الأزقة التي كان يلعب فيها مع أصدقائه وكيف أنها لم تكن تثير فيهم أي خوف ولا حتى الحاجة إلى اصطناع التأثر، فلقد كانت من الكثرة إلى درجة أن الشعور الوحيد الذي كانت تثيره فيهم هو الامتعاض من كونها كانت تضايقهم في ألعابهم إذ كانوا يضطرون لفسح المجال لها المرة تلو المرة وبدون انقطاع.

وما هي إلا أيام حتى سقط صاحبنا طريح الفراش. إنه يرى نفسه الآن ـ وهذا هو **المشهد الثاني** ـ جسماً صغيراً ممدوداً على الأرض، مغطى بإزار أبيض، ومن حين لآخر تهجم عليه موجات من الحمى، فيغيب عن رشده، حتى إذا خفت وفتح عينيه على السماء رأى قطع السحاب على صورة خيول وجمال تتحرك أو تتسابق، فيعود ليغمض عينيه أو ليغطي وجهه و «ينام». لقد اختار له أهله ـ من أبيه ـ أن يقيم أثناء النهار في ذلك المكان الذي يقع على جانب الجدار الذي يصل باب الدار بالصحن المفتوح على السماء، عند نهاية سقيفة باب المنزل المظلمة، ولكن الباردة، والتي كانت خاصة بجده يلجأ إليها في الصيف، في أوقات القيلولة خاصة، هروباً من لظى القيظ...

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، والذكريات يستدعي بعضها بعضاً، فإن صاحبنا يرى الآن مشهداً لم يكن قد استحضره عندما كان يستعرض وينظم هذه الذكريات التي تنتمي إلى طفولته الأولى... إنه مشهد جدة أبيه التي كان يدعوها «نانّا حنّا»، والتي كانت قد عاشت أزيد من مائة سنة. ومع أن ذاكرته لا تحتفظ له بتفاصيل كثيرة عن والدة جده لأبيه، هذه التي بلغت من العمر عتيّاً، فإنه متأكد أنه يراها الآن جالسة القرفصاء خلف الباب، غير بعيد من المكان الذي كان ممدوداً فيه أثناء مرضه. كانت تتكلم أحياناً مع نفسها كلاماً لا يفهم، وأحياناً تنادي على هذا

«يصبّح» عليها ـ أو يمسي، طلباً لبركتها ورضاها، كما كان أفراد الأسرة يفعلون كل يوم، كانت تمسكه بيديها وتلح عليه في الجلوس على حجرها، وعندما يفعل كان يحس وكأنه جالس وسط مجموعة من العظام.. ومع أنه يتذكر أن رأسها كانت تتدلى منه ضفيرتان خفيفتان قصيرتان وأن شفتيها كانتا مشدودتين طول الوقت إلى بعضهما، وكأن فكيها اندمجا في عظم واحد، فإنه يتذكر جيداً أن أهله كانوا يقولون عنها إنها بدأت تنبت أسناناً جديدة كأسنان الأطفال، وأن شعراً جديداً أخذ يظهر على رأسها... كانت هذه الجدة المعمرة تقيم عند أولادها الثلاثة بالتناوب، وكانوا جميعاً جدوداً لأحفاد وحفيدات. ومع ذلك فقد بقيت تميل إلى أصغر أبنائها الذي كان آنذاك في نحو الخمسين من عمره، وكان الجميع يقول إنها كانت تحابيه، وهو جد، تماماً كما كانت تفعل وهو طفل صغير... والحق أن العاطفة لا زمن لها، بل زمانها حاضر ممتد لا أول له ولا آخر.

ـ ٢ ـ

تقع مدينة فجيج، مسقط رأس صاحبنا، في الجنوب الشرقي من المغرب، على خط الحدود الذي أقامه الفرنسيون بين المغرب والجزائر في أوائل هذا القرن. كانت فجيج وما زالت واحة جميلة مكتظة بالنخيل تحيط بها الجبال من جميع الجهات، وتلامس الجبلين اللذين يحدانها من الجنوب واللذين كانت تقع وراءهما علامات الحدود التي أقامها الفرنسيون في هذه المنطقة، عندما احتلوا الجزائر قبل منتصف القرن الماضي. أما اليوم فقد تقدمت الحدود نحو المدينة منذ قيام الثورة الجزائرية، وذلك عندما أحاط الفرنسيون المدينة من الجنوب والشرق بأسلاك شائكة منعاً لأهلها من مساندة الثوار الجزائريين، ولا يزال الوضع كذلك إلى اليوم. وبين الجبلين المذكورين تمتد الطريق الرابطة بين فجيج وبين قرية بني ونيف، الجزائرية اليوم، المغربية الأصل. وفي منتصف الطريق تنتصب صخرة عليها رسوم قديمة يرى بعض الباحثين أن «لها علاقة مع «آمون رع» بطيبة مصر، علاوة على الكراكيت أي أهرام من الأحجار، بداخلها أدوات بدائية سابقة لنموذج الأهرامات الفرعونية»، مما يدل على قدم هذه المدينة التي كانت إحدى بوابات الصحراء، ومحطة من محطات القوافل التجارية التي كانت تتنقل من بلاد سوس على المحيط الأطلسي إلى صعيد مصر. أما سكانها فهم خليط من عرب وأمازيغ، جمع بينهم المقام والمصاهرة والمصالح ولغة

الكلام، إذ كانوا جميعاً يتحدثون لهجة أمازيغية متفرعة عن لهجة الأطلس الكبير ومتميزة عنها بقربها إلى درجة المطابقة مع اللهجات الأمازيغية التي يتكلمها سكان الخط التجاري الصحراوي الممتد من تافيلالت إلى صعيد مصر.

كانت فجيج (أو فكيك، وبالأمازيغية: إفْيِيْ) تتألف زمن طفولة صاحبنا ـ وما زالت كذلك اليوم ـ من سبعة قصور. و «القصر» ـ ويسمى بالأمازيغية أَغْرَم ـ هو عبارة عن تَجَمُّع سكني، من منازل مبنية من الطوب ومسقفة بخشب النخل والتراب. أما الأزقة فبعضها عار وبعضها عليه سقف يحمل غرفة تابعة لهذا المنزل أو ذاك. كان كل قصر ذا شخصية خاصة به: تسكنه عائلات وأفخاذ معروفة محصية. ولم يكن يحدث إلا في النادر جداً، ولسبب طارىء، أن ينتقل شخص من قصره، قصر آبائه وجدوده، إلى السكنى في قصر آخر... كان أهل قصر «الوداغير» (وبالأمازيغية آت عدي: آل عدي) يعتبرون أنفسهم «شرفاء» أرفع شأناً وأكبر مقاماً وكانوا يمارسون التجارة في الغالب. وبجانبهم يمتد، من جهة الجنوب، قصر «أولاد سليمان» (آت سليمان) وهو من أصغر القصور، يليهما من جهة الشرق، قصر «المعيز» (آت لمعيز) ومعظم أهله من «الشرفاء» المتواضعين. وإلى الشرق، على سفح هضبة فجيج، يمتد قصر «الحمام الفوقاني» (آت عامر) ثم قصر «الحمام التحتاني» (آت وادّاي) وهما قصران متلاحمان مترابطان، منازل وسكاناً، تغزوهما الرمال بين حين وآخر، وأهلهما كانوا معروفين بالصدق والتصديق إلى درجة الغفلة. وفي الطرف المقابل، أعني إلى الغرب من قصر الوداغير يوجد قصر صغير يحمل اسم «العبيدات» (آت النَّج). وإلى الجنوب من هذه القصور كلها، وعلى أسفل هضبة فجيج يقع قصر زناكة (بالأمازيغية: إزناين) على السهول الممتدة إلى الجزائر، وهو أكبر القصور جميعاً وربما يعدلها مساحة وسكاناً وأهله يعتبرون أنفسهم «المركز» والباقي «أطراف». وبما أنهم كانوا على خط المواجهة مع الفرنسيين في الجزائر فلقد كان نصيبهم من المقاومة والتضحية أكبر، وكانوا لذلك يعتبرون أنفسهم أشجع وأقدر على المقاومة. أما اختصاصهم فكان الفلاحة للرجال وصنع الجلابيب والبرانس للنساء.

في هذا القصر، قصر زناكة، ولد صاحبنا وفيه نشأ نشأته الأولى. ومع أن أهله من أمه كانوا في الأصل من قصر «المعيز» من أولاد سيدي عبد الجبار، وأن أهله من أبيه كانوا أصحاب قصر خاص بهم يحمل اسمهم، فإنهم جميعاً، أعني أهله من أبيه وأهله من أمه، كانوا قد سكنوا قصر زناكة منذ مدة طويلة وصاروا فئة من

قصر «العبيدات» قريباً من منحدر الهضبة المطلة على قصر زناكة من الغرب. وهي ما زالت كذلك إلى اليوم. وكانت جدة صاحبنا لأبيه تحرص دائماً على تذكيره بمكان قصر جدوده عندما يكون في رفقتها إلى بعض ذويها في قصر «العبيدات» أو قصر «الوداغير» حيث كانت تسكن أختها.

ولم يكن قصر أولاد جابر وحده «القصر الخراب» في مدينة فجيج، بل كانت هناك قصور أخرى خربة، بعضها على أطراف المدينة وبعضها الآخر على مقربة من وادي زوزفانة الذي تمتد على ضفتيه بعض حقول النخيل التابعة لأهل زناكة خاصة. ويستفاد من سرد المؤرخين لوقائع تاريخ المغرب أنه كان لمدينة فجيج دور هام في كثير من الأحداث والثورات منذ الفتح الإسلامي. يبدو ذلك واضحاً عند ابن خلدون الذي ذكر فجيج مراراً (وأحياناً يكتبها فكيك) في تاريخه، وهناك من يرجع ببعض القصور الخربة في هذه المدينة إلى زمن الأدارسة. ومهما يكن فلقد كانت فجيج مركزاً استراتيجياً وبوابة من بوابات الصحراء، وفضلاً عن ذلك كانت مركزاً علمياً هاماً ومقصداً لأصحاب «الزوايا»، العلماء منهم والأدعياء، ولم يكن عبد الجبار الفجيجي وأبناؤه وحفدته بقصر «المعيز»، ومنهم ينحدر جد صاحبنا لأمه، سوى الرعيل الأخير لسلسلة العلماء والمتصوفة و «الأولياء» بهذه المدينة.

وإذا كان صاحبنا لا يدري شيئاً عن سبب نزوح أهله من أمه من منازلهم بقصر «المعيز» إلى قصر زناكة فإنه، بالمقابل، يذكر جيداً قصة سكنى أهله من أبيه هذا القصر، كما «خبرته» بها، مراراً وتكراراً، جدته من أبيه. تقول «الخبّيرة» (الحكاية) التي روتها له جدته عن جدوده: إن آل جابر كانوا يحكمون المدينة بجميع قصورها، وقد طغوا طغياناً كبيراً في وقت من الأوقات، وصاروا إذا ولد لهم ولد حملته خادمة إلى أحد القصور الأخرى، بالتناوب، ليستقبله أهل ذلك القصر بطفل في مثل سنه، يذبح «تكريماً» للوليد وتأكيداً للولاء لآل جابر. وذات يوم كان الدور على أرملة من قصر زناكة لم يكن لها سوى طفل واحد وحيد، فعزّ عليها وخرجت إلى الشارع عارية تستغيث وتستنهض الرجال، رجال قصر زناكة، فهبوا لنجدتها، وقد ثارت ثائرتهم. وهكذا فبدل أن يذبحوا ابنها تكريماً للطفل الجابري ذبحوا هذا الأخير، ثم جمعوا أمرهم بسرعة وقصدوا قصر آل جابر فهاجموه على حين غرة من سكانه فهدموا المنازل على أهلها وقتلوا من قتلوا منهم واقتادوا الباقين ووزعوهم على القصور الأخرى حتى لا تقوم لهم قائمة من بعد.

وعلى الرغم من الدور الذي قد يكون للخيال الشعبي في قصة «خراب» قصر أولاد جابر، فإن هناك حادثة تاريخية تؤسسها بعض التأسيس. ذلك أن مؤرخي المغرب يذكرون أن أهل فجيج كانوا قد أكثروا من الثورات واستقلوا بأنفسهم مكونين لهم شبه جمهورية صحراوية مستقلة. وأيام الدولة الموحدية قرر أحد ملوكها أن يسلط عليهم إحدى القبائل الشرسة الوافدة من المشرق، مع قبائل بني هلال في هجرتها المعروفة، فوقع اختياره على قبيلة آل جابر فبعثهم إلى فجيج ليخضعوها ويحكموها باسمه. وقد شيدوا قصرهم، بين زناكة والوداغير، قريباً من منابع عين «تزادرت»، وهي أهم مصدر للماء في فجيج، والتحكم فيها يعني التحكم في منبع الحياة الرئيسي في هذه المدينة الصحراوية. ويذكر بعض المؤرخين فعلاً أن أهل زناكة ثاروا على حكم آل جابر في وقت من الأوقات، ولسبب من الأسباب ـ قد يكون راجعاً إلى النزاع حول ماء «تزادرت» وقد يكون غير ذلك ـ فخربوا قصرهم ووزعوهم على أحيائهم، منعاً لهم من أن يلتئم لهم شمل من جديد، مما يعطي خلفية تاريخية حقيقية للحكاية السابقة. ومع أن آل جابر (وبالأمازيغية: آت جابر) قد اندمجوا، بمختلف فصائلهم وأفخاذهم، في أحياء المدينة وبين أهل قصر زناكة بكيفية خاصة، من خلال المصاهرة والمعاشرة والتحالفات، فإنهم قد احتفظوا في سلوكهم ولاوعيهم بشيء من الأنفة والاعتداد بالنفس. كما أن سكان المدينة كانوا، إلى زمن طفولة صاحبنا، ينظرون إليهم بوصفهم «جبابرة» يصعب انقيادهم. وقد سمع صاحبنا من خاله مراراً تأنيباً ينتهي بالعبارة التالية: التي يمكن نقلها إلى العربية كما يلي: «رأسك قاسح (قاس ومتصلب) كراس أولاد جابر».

وعلى العكس تماماً من «كبرياء» آل جابر، أهل صاحبنا من جهة أبيه، كان «أولاد الحاج محمد أو الحاج معضاض»، أهله من جهة أمه، معروفين بالتواضع والمسكنة والعافية. لقد كانوا «أهل علم» لا «أصحاب سيف»، وهم يفتخرون بانتسابهم إلى العالم الشهير سيدي عبد الجبار الفجيجي، صاحب الضريح المشهور في قصر «المعيز». كانت أسرة «الحاج محمد أولحاج» جد صاحبنا لأمه قليلة العدد شأنها شأن أسر أولاد الحاج عموماً. لم يكن لصاحبنا أية خالة وإنما كان له خال واحد (كان الثاني، وهو الأصغر، قد توفي وصاحبنا ما يزال يحبو كما ذكرنا. أما خاله الثالث فقد كان أخاً لأمه من جهة أمها وحدها وقد كانت العلاقة معه محدودة، إذ قضى معظم عمره خارج فجيج، في الجزائر أولاً ثم في وجدة بعد ذلك). كان ذلك الخال، ولد الحاج محمد أولحاج، متين البنية شديد الأنفة صعب المراس، وكان

الذين طلقوا أخته حبلى به.. لقد فهم صاحبنا هذا المعنى من خلال عبارات كثيرة كان خاله يرددها أمامه. وإذا كان لا يتذكر بالحرف هذه العبارات فإنه لا يستطيع أن يمحو من ذاكرته جملة المعاني التي كانت توحي بها له. لقد كانت الرسالة واضحة: إن عليه أن يكون من آل الحاج وليس من آل جابر. لقد طلق هؤلاء أمه من غير سبب وهي حبلى به، ملحقين هكذا إهانة بأهلها، فليطلقهم ابنها، هو كذلك، وليبق إلى الأبد ابن أولاد الحاج، فهو طفلهم الذكر الوحيد، وهم أهله الحقيقيون.

ذلك ما حاول الخال مراراً إفهامه لابن أخته، صاحبنا هذا، منذ نعومة أظفاره. والحق أن هذا الموقف لم يكن صادراً عن حقد على آل جابر بقدر ما كان صادراً عن حب الخال لأخته ولابنها ورغبته في احتضان هذا الأخير والاستئثار به. لقد كان هذا الطفل وحيد أمه، بل وحيد أهلها، إذ لم يكن للخال ابن ذكر وإنما كانت له بنت في مثل عمر صاحبنا رزقها من زوجة عرف عنها أنها صارت عاقراً.. ومنذ أن كان طفلاً صغيراً وهو يسمع من خاله أنه سيزوجه ابنته الوحيدة تلك. وقد بقي الخال متمسكاً بمشروع الزواج هذا إلى أن كبر صاحبنا وصار في سن الزواج، فعرض عليه الخال رسمياً أن يزوجه ابنته تلك، فاعتذر بالقول إنه يعتبرها أخته وأنه لا يستطيع أن يتعامل معها على غير هذا الأساس. ولقد كان الأمر كذلك بالفعل، فالعلاقة بينه وبينها كانت من جنس علاقة الأخ بأخته، علاقة حب من نوع خاص لا يمكن تغيير وجهته ولا مضمونه. ومع أن الشباب في فجيج، من جيله والأجيال السابقة، لم يكونوا يمانعون في قبول مثل هذه «الاقتراحات»، أو على الأصح لم يكونوا يستطيعون الاعتذار، فإن صاحبنا كان، يوم عرض عليه خاله ذلك، قد فارق «الشرنقة» منذ زمن طويل، مستقلاً بنفسه في الدار البيضاء حيث كان يدرس ويعمل ويسكن مع أبيه وأعمامه. وتلك مرحلة أخرى سيأتي الحديث عنها فيما بعد. فلنعد إلى أيام الصبا، إلى العلاقة بين أهله من أمه وأهله من أبيه وقصة تسميته باسمه المعروف به اليوم، وظروف نشأته.

ـ ٣ ـ

نشأ صاحبنا، كما أسلفنا، نشأته الأولى عند أخواله. وكان جده وجدته لأمه، علاوة على أمه وخاله، يرعونه رعاية فائقة. كان الجد والجدة مسنين، ولا بد أنهما كانا قد تجاوزا السبعين، فكان الطفل الصغير مؤنسهما، لا بل قرة أعينهما. أما

علاقته بأمه ونوع ارتباطه بها وارتباطها به فهو لا يستطيع أن يعبر عن كنهها بالكلام. ولعل القارىء يتخيل نوع هذه الرابطة إذا هو عرف أن طفلنا كان وحيدها، وأنها عادت مطلقة إلى بيت أبيها وهو جنين في بطنها، وأنها كانت من النساء الصامتات الخجولات الصابرات القانتات اللائي لا يسمع لهن أنين ولا شكوى ولا نحيب ولا قهقهة، وأنها مكثت في بيت أبيها بعد طلاقها مدة سبع سنوات عاكفة على تربية ابنها لا تغادر الدار إلا نادراً، رافضة الزواج رغم كثرة الذين كانوا يطلبون يدها. كان أبوها وأمها وأخوها قد حسموا في هذه المسألة: لقد قرروا جميعاً أن لا تتزوج «الوازنة»، وهذا كان اسمها، إلا بعد أن يبلغ «محمد» ـ وهذا هو الاسم الذي حمله ابنها في نهاية الأمر ـ سبعة أعوام كاملة.

لقد علم صاحبنا بذلك القرار فيما بعد، بطبيعة الحال. وهو لا يتذكر بالضبط هل علم به من جدته لأمه أو من جدته لأبيه، ولكنه يعلم علم اليقين، وذاكرته متأكدة من نفسها في هذا الأمر، أن أمه لم تتزوج إلا بعد أن صار فعلاً في سن السابعة، حين انتقل به جده لأمه من مسيد الحي الذي يسكنه أولاد الحاج إلى مسيد آخر يقع في الأحياء المجاورة لحي أهله من أبيه، وكان صاحبه هو والد ذلك الشخص الذي أصبح زوجاً لأمه.

إنه يتذكر هذا جيداً، ويتذكر كذلك وبنفس القوة والوضوح، قصة تسميته «محمداً» كما قصتها عليه جدته لأبيه في مرحلة متقدمة من طفولته، عندما أصبح ملازماً لها في بيت أهله من أبيه، بعد زواج أمه بمدة قصيرة. لقد أخبرته غير ما مرة أن أخواله كانوا يريدون تسميته بـ «عبد الجبار» تيمناً بجدهم سيدي عبد الجبار الفجيجي العالم المشهور الذي سبقت الإشارة إليه. كان هذا العالم الجليل (وله عدة مصنفات حدثني جاك بيرك المستشرق الفرنسي المشهور في لقاء معه خلال ندوة بواشنطن في نيسان/أبريل ١٩٨٢ أنه يتوفر في خزانته بفرنسا على عدة مخطوطات لسيدي عبد الجبار وقال إنها مهمة جداً وأنه ينوي تحقيقها عندما يسمح له الوقت بذلك. وقد مات جاك بيرك قبل أن يفعل)، كان هذا العالم الجليل أحد آباء جده لأمه، فأراد هذا الأخير أن يخلد اسمه في حفيده تيمناً به.

غير أن هذه الرغبة اصطدمت برغبة أخرى حركت جدته لأبيه. ذلك أنها كانت قد سمت ابنها البكر، والد صاحبنا، باسم «محمد»، تيمناً باسم النبي الكريم. غير أن أقرانه من أبناء الحي قد حرفوا اسمه وهو ما يزال صغيراً فصاروا يدعونه «حمو دودّو»، وهو اختزال لـ «محمد بن أحمد»، وذلك على طريقة أهل فجيج في

«أمّو» حين الكهولة والشيخوخة، بينما يختزل «أحمد» إلى «حِدَا» زمن الطفولة والشباب ثم إلى «دودّو» بعد ذلك، كما تخفف خَديجة إلى «خِجّا» ثم إلى «جّا»، وهكذا... (بالمناسبة نتساءل: هل هناك علاقة بين هذا النوع من الاختزال لاسم «محمد» بالأمازيغية إلى «حمو»، وبين اسم «حمو رابي ـ أو حمو رَبِيّ»، الملك البابلي صاحب الشريعة المعروفة؟ هل «حمو» في «حمو رابي» تحريف أو تخفيف لاسم «محمد»؟ مجرد سؤال...).

المهم أن جدة صاحبنا من أبيه أصرت على أن يكون اسمه «محمداً»، فحصل نزاع بينها وبين أخواله. غير أن الجدة، أم الأب، تصرفت كواحدة تنتمي إلى «آل جابر» فهددت بأخذ الطفل وحرمان أمه وأخواله منه، فما كان من هؤلاء، أهل السكينة والعافية، إلا أن قبلوا، فسمي صاحبنا باسمه الذي ما زال يحمله كاسم شخصي. أما اسمه الثاني «عابد» فهو اسم أحد جدوده من أبيه صار علماً على حي من أحياء آل جابر، فيقال «أولاد عابد»، كما يقال «أولاد الطيب» و «أولاد بوزيان»، وغيرهم من فروع آل جابر.

لم تكن جدته من أبيه تنتمي إلى آل جابر وإنما كانت من أصغر قصور فجيج، قصر «لعبيدات»، الذي كان ملاصقاً لقصر الوداغير ومجاوراً لقصر آل جابر المخرب المهدم. ومع ذلك فكون جدته هذه ـ واسمها «أدّا»: تخفيف حادة بالأمازيغية ـ أُمّاً لأبناء من آل جابر كان يكفيها لتتصرف كواحدة من «الجبابرة». لقد كانت من تلك النساء اللائي يُقمن الدليل، المرة تلو المرة، على أنهن صاحبات الأمر والنهي، يزوجن أبناءهن من يرتضين من النساء ويطلقنهن متى شئن وبدون اعتبار رأي أزواجهن. ويبدو أن أمراً تافهاً تسبب في شجار كلامي بينها وبين أم عروسها، فكانت هذه وجنينها هما الضحية. لقد طلقت على ابنها زوجته وما كان له إلا أن يقبل، شأنه شأن أبناء كثير من العائلات في فجيج الذين كانوا يتزوجون ويطلقون بأمر أمهاتهم. لم يكن من الممكن الاعتراض على قرار الأمهات في هذا الشأن... فلقد كان أقسى عقاب ينال الشخص هو «سخط الوالدين»...

كانت الأم تختار لابنها زوجته خلال الأعراس والمناسبات، وقد تستعين ببعض ذوات الخبرة من قريباتها أو صديقاتها: يجلسن أثناء الحفل ـ الذي لم يكن يحضره سوى النساء طبعاً ـ ويستعرضن الفتيات الحاضرات مع أمهاتهن، يتصرفن في سرية تامة، ويتكلمن بالإشارة والرمز فيقررن في كل شيء، في الجمال والأخلاق

والنسب والحسب، حتى إذا استقر رأيهن على فتاة رجعت الأم المعنية بتزويج ابنها لتزف البشرى إليه بواسطة عمته أو خالته، ثم تبعث بالخاطبات إلى منزل الفتاة. فإذا سارت الأمور بيسر جاء دور الأب ليذهب هو وبعض معارفه من وجهاء الحي إلى والد العروس للخطبة. قد يتمكن العروس من رؤية الفتاة خلسة، وفي الغالب لا يراها ـ إذا أتيح له ذلك ـ وإنما يرى كائناً بشرياً يمشي على الأرض عليه إزار (حجاب) من قمة رأسه حتى أخمص قدمه، مغطى الوجه بالكامل إلا ما كان من فتحة صغيرة تصنعها أصابع المرأة بين تلابيب إزارها قريباً من إحدى عينيها، وفي حجم عين أصغر الطيور، فترى منها الطريق. أما العين الأخرى فتبقى مغطاة هي وكامل الرأس والوجه والجسم إلى القدمين.

لم تكن المرأة في فجيج تشتغل خارج المنزل، فهي لا تمارس أعمال الفلاحة كما في البوادي المغربية الأخرى. كان كل شغلها في البيت: الغزل والنسيج وإعداد الطعام. أما خارجه فينحصر عملها في الغسل، غسل الثياب في المغسل العام الخاص بالنساء الذي كان عبارة عن قطعة من الأرض محاطة بجدران تشقها ساقية ماء، في منطقة يحرم على الرجال الاقتراب منها. كان هناك في قصر زناكة مغسلان، أحدهما يسمى «اعمارة» وهو لحي «ازناين» الذي سمي القصر باسمهم لكبره وكثرة ساكنيه ويقع شرقاً، والثاني يسمى «احرحاض» وهو في حي «اداريت» إلى الغرب. كانت النساء يذهبن إلى أحد المغسلين، ويعدن منه، محجبات وعلى ظهورهن جفناتهن المملوءة بالغسيل والمغطاة هي الأخرى بالحجاب الذي يرتدينه. وإضافة إلى الغسيل كانت النساء يجلبن الماء على ظهورهن في قلال من الفخار، تحت الحجاب دائماً، من أعالي السواقي حيث يكون الماء نقياً نظيفاً قبيل الفجر. لقد كن يتواعدن كل يوم ويوقظ بعضهن بعضاً ليذهبن جماعات تحت جنح الظلام محجبات (مع التخفيف على الوجه هذه المرة) إلى السواقي العليا ليأتين بالماء النقي قبل خروج الرجال للاغتسال والوضوء لصلاة الصبح.

ويقال ـ استناداً إلى ما احتفظت به ذاكرة صاحبنا من أخبار التقطها على عهد طفولته الأولى، والأطفال يلتقطون عادة مثل هذه الأسرار بسهولة ويسر ـ إنه في هذا الوقت، وقت عودة النساء بالماء من السواقي العليا وخروج الرجال للاغتسال والوضوء قبيل الفجر، حدث ذات يوم، مصادفة أو بموعد سابق، أن جرى خلسة وبسرعة، وفي ركن من أركان الطريق، ما يجري بين رجل وامرأة من علاقات محرمة، فكان ذلك من الحوادث النادرة التي ينتقل خبرها، في العادة، انتقال النار

في الهشيم: يهمس بها الرجل في أذن صاحبه مع التأكيد عليه على «الاحتفاظ بالسر» لنفسه فقط... والحق أنه نادراً جداً ما كان يحصل هذا النوع أو غيره من أنواع «الخروج عن الطريق»، إذ يكاد يكون محصوراً في بعض المطلقين والمطلقات... أما الوافدون على المدينة من أعوان سلطات الحماية الفرنسية من جنود وموظفين فقد أقامت لهم ـ كما فعلت في جميع المدن المغربية ـ حيين خاصين لممارسة هذا النوع من العلاقات بصفة «قانونية»، مع نساء مستوردة من هذه الجهة أو تلك، أحدهما كان في قصر زناكة (= القسبت أو القصبة) ولم يعمر طويلاً، والثاني بحي الوداغير (= تميجرت) وهو أكبر لقربه من الحي الإداري، وقد أغلق مباشرة مع إعلان الاستقلال. ولم يكن أبناء فجيج يرتادون هذين الحيين إلا في النادر... وعلى العموم لقد كان الزواج هو الطريق المستقيم، وكان سهلاً وميسراً مثله مثل الطلاق.

فعلاً، لم يكن الزواج يومئذ يكلف كثيراً، فالهدايا بسيطة والمهر أبسط، إذ لم يكونا يتجاوزان في الغالب حزاماً ملوناً مفتولاً من خيوط الصوف الغليظة الذي تحمل المرأة عليه ما تضعه على ظهرها كالأولاد الصغار وقلال الماء وجفنات الغسيل، وقد يشتمل المهر على خلخال وأسورة، كانت من الفضة لا غير. أما الذهب فنادر جداً. وأما حفلة الزفاف فكانت تقام على شكل «تويزة»، أي على صورة مشروع جماعي، يشارك في الإعداد لها وفي موادها أصدقاء العريس وأقاربه. أما الطلاق فلم يكن مستهجناً قط، بل كان أمراً عادياً تماماً. وكانت أم الزوج هي التي تتولاه في الغالب. ولكن قد يحدث أن تأتي المبادرة من الزوج فتقول عنه النساء حينئذ إنه «يكره»، كما قد يحدث أن «تكره» المرأة فتعتصم في بيت أهلها رافضة الذهاب إلى زوجها. أما علاقة «الحب» ومظاهرها فكانت، إن وجدت، تتم في سرية تامة، حتى بين الزوج وزوجته، إذ نادراً ما يرى أحدهما الآخر في النهار: فالزوجة مشغولة طول الوقت مع حماتها تغزل وتحيك وتهيىء الطعام الخ... حتى إذا جن الليل آوت إلى مخدعها لتنام مع زوجها، متجنبة استعمال مصباح قوي أو تركه مشتعلاً أكثر من الوقت الضروري لدخول الغرفة وأخذ مكانها فيها. وحتى إذا تركه الزوج يضيء ما حوله بنوره الخافت، فإن آداب الجماع كانت تقتضي أن يغطي الزوج وجه زوجته بإزارها...

تلك كانت العادة السائدة يومئذ، ولكنها لم تكن عامة بنفس الشكل ولا بنفس الدرجة، وصاحبنا يشك في أن والده كان يلتزم بها مع زوجاته (لقد زوجته أمه وطلقت له أكثر من ثلاث مرات) فلقد كان رجلاً يسافر إلى بوعرفة ووجدة، وقد

تعرف هناك على نمط آخر من التعامل مع النساء، ولذلك يستطيع أن يقول عنه إنه كان متحرراً ولم يكن متزمتاً. وإذا كان لا يستطيع أن يقول أي شيء عن نوع العلاقة التي كانت تشد أباه إلى أمه قبل انفصالهما فإنه يستطيع أن يؤكد أنه ما سمع يوماً كلاماً غير لائق من أبيه في أمه أو العكس، بل إنه يستطيع أن يخمن الآن أن سكوت أمه عن ذكر اسم أبيه وسكوت أبيه عن ذكر اسم أمه طوال طفولته إنما يدل على علاقة حميمة دفينة قمعتها «الحرب» التي كانت بين الجدتين. إن «رضا الوالدين» كانت له هنا الكلمة العليا على العاطفة بين الزوجين.

كان الأب يحب ابنه ويدلله ويتلذذ بالدخول معه في جولات حبية من الملاكمة والمطارحة. وبما أنه كان تاجراً يسافر إلى وجدة فلقد كان يحمل معه لابنه كلما عاد من سفره هدايا كثيرة من مأكولات وعباءات من الكتان والحرير إلى درجة جعلت هذا الابن يتباهى أمام أقرانه بعباءاته التي كان يلبس منها مرة واحدة ما قد يصل عدده إلى خمسة أو ستة، في حين كان جل أطفال بلدته يقتصرون على عباءة أو اثنتين من الصوف في الغالب. ولم يكن أبوه تاجراً وحسب بل كان أيضاً صاحب مخبزة، وكان يحرص دائماً على أن تكون الخبزة التجريبية المسماة «الطورطة» من نصيب صاحبنا يحملها معه إلى بيت أمه. و «الطورطة» خبزة خاصة تلقى في الفرن لمعرفة مدى ملاءمة حرارته لطهي الخبز، وتكون في العادة عريضة ورقيقة تتخللها فتحات في طول الإصبع أو أكثر، وكانت لذيذة جداً تؤكل مع الشاي أو بمفردها، فكانت لـ «الخواص» فقط. لقد كان الأب يحب ابنه كثيراً ولذلك لم يكن أحد من عمال المخبزة يخالف له رغبة.

كان والد صاحبنا تاجراً وصاحب مخبزة. وقبل أن يصبح كذلك مارس مهنة البناء كأبيه. غير أن صاحبنا لم يدرك أياً منهما يمارس هذه المهنة، إلا إذا تعلق الأمر ببناء جدار في البستان أو إصلاح سقف في الدار. أما المهنة التي أدرك صاحبنا جده لأبيه يمارسها فهي مهنة خياطة البرانس، وكان يقوم بها في الغالب خارج المنزل في مكانه «الثابت» من المجمع الذي يرتاده في حي «أورتان» قريباً من منزله. ولم يكن يقبل أو يرضى أن يتولى حفيده إمساك خيوط «البرشمان» له، بل كان يستعمل أطفالاً آخرين. ومع أنه كان رجلاً صموتاً وقوراً، لا يتكلم إلا عند الحاجة ولا يبتسم إلا بمقدار، فإنه لم يكن يبخل على حفيده بقطعة من السكر عندما يكون بصدد «إقامة» الشاي في المنزل بعد الغذاء. لقد كانت هذه الإلتفاتة من هذا الرجل، المعروف بجديته الفائقة، تنطوي على معنى، إذ لم يكن يحظى بمثلها أحد من أفراد

العائلة. وأكثر من ذلك كان صاحبنا هو الشخص الوحيد، من بين أفراد الأسرة، الذي يناديه هذا الرجل الوقور للجلوس بجانبه. ومن المؤكد أنه كان الطفل الوحيد الذي كان هذا الجد يبتسم له ويداعبه ولكن دائماً بوقار ومقدار.

وإلى جانب الخياطة كان هذا الجد يقوم بمهمة المتصرف (= أسرايفي) لحصص ماء «تزادرت» التي كان يملكها أحد أقارب العائلة من الأغنياء بقصر الوداغير. كانت مهمة دقيقة وصعبة إذ تتطلب المعرفة بأنواع معقدة من الحساب يقوم بها «المتصرفون» ذهنياً بدون أوراق ولا أقلام إلا ما ندر. لقد كان لكل قصر من قصور فجيج عين ماء ـ واحدة أو أكثر ـ منها يشرب أهله ويسقون دوابهم وزرعهم، هذا إضافة إلى الآبار التي كان ماؤها مالحاً في الغالب. غير أن معظم العيون لم تكن ذات صبيب يسمح بالاستفادة منه في الفلاحة، باستثناء عين «تزادرت» التي كانت وما زالت خاصة بقصر زناكة تقريباً، نظراً لوجودها في بداية انحدار الهضبة المطلة على السهل الذي يمتد فيه هذا القصر مع بساتينه.

كانت عين «تزادرت»، إذن، المصدر الرئيسي للماء في فجيج، ولقصر زناكة بالخصوص. وكان ماء هذه العين ـ وما زال ـ لا يزيد ولا ينقص، فقد شيد مخرج الماء فيها بشكل يجعل صبيبها ثابتاً منتظماً طول السنة، ثم وزع على قنوات رئيسية ذات حجم واحد يعطي كل منها صبيباً مساوياً لصبيب الأخرى. والصبيب الذي تعطيه الواحدة من هذه القنوات الرئيسية في مدة خمسة وأربعين دقيقة يسمى «الخروبة» (بالأمازيغية: تخروبت). وكان عدد منها في «ملكية جماعية» يستفيد منها السكان جميعاً، بينما كان الباقي، وهو الأكثر، في ملكية الخواص يباع ويشترى. وكانت «الخروبة» من ماء «تزادرت»، وما تزال إلى اليوم، سلعة لا تبور إذ كانت أهميتها، وما تزال، كأهمية الذهب في أسواق المال. ومن القنوات الرئيسية تتفرع قنوات أخرى أكثر عدداً وذات صبيب منتظم وثابت، يصب كل منها في صهريج خاص، وكانت الصهاريج في حجم مسابح اليوم، وكان الأطفال والشباب يسبحون فيها كما يفعل أقرانهم اليوم في المسابح العامة. كان لكل صهريج متصرف واحد أو أكثر يوزعون ماءه بطريقة دقيقة: يقاس ارتفاع الماء في الصهريج إلى أقصى علوه بعمود مستقيم من خشب لا ينال منه الماء بسرعة. يوزع العمود إلى أقسام بمقدار السنتمتر تقريباً، بالحفر عليه بواسطة سكين أو حجر حاد. وحجم الماء الذي يمثله كل قسم من هذه الأقسام، التي تختلف حسب حجم الصهريج، يسمى «تيغريت» وعلى أساسها تتم محاسبة ما استهلكه الشخص من الماء في سقي بستانه أو ملء خزان

الماء المنزلي الخاص إذا كان له مثل هذا الخزان. كان الصهريج الواحد تسقى منه عدة بساتين وكان على صاحب البستان أن يعلم على عمود القياس مقدار استهلاكه من الماء ثم يقوم المتصرف بضبط استهلاك المشتركين ومحاسبة كل واحد. وفي الصباح قبل شروق الشمس يجتمع المتصرفون للتنسيق وتبادل حصص الماء. ولم يكن المتصرف يتقاضى أجرة نقدية بل كانت تمنح له حصة خاصة من الماء تتفاوت بتفاوت عدد الخروبات التي يتصرف فيها. ومع أن المتصرف يتوفر على «ساعة» جيب لحساب الوقت إلا أن مرجع المتصرفين كان بالأساس «الساعة الشمسية» التي يقدر الزمان فيها بواسطة تحرك الظل على جدار معلوم ومختار لهذا الغرض وكان يقع وسط ساحة «الجماعة» بجوار منزل صاحبنا لأهله.

ولم يكن جد صاحبنا لأبيه مشغولاً بحسابات المتصرفية «تاسرايفت» انشغالاً كبيراً إذ لم يكن يمتهن هذه المهنة امتهاناً وإنما كان عمله فيها محدوداً في السهر على حصص ماء شخص واحد من الأقارب من سكان قصر الوداغير. أما الشاغل الذي كان يحظى منه بأكبر عناية واهتمام زمن طفولة صاحبنا ـ أعني طفولته الأولى، قبل انتشار فكر الحركة الوطنية الذي بدأ يتغلغل في المدينة مع بداية الأربعينات ـ فهو عمله كواحد من «درقاوة»، نسبة إلى الطريقة الصوفية الدرقاوية المتفرعة عن الشاذلية. كان مقر هذه الطريقة في المسجد الصغير بحي «أورتان» قريباً من منزل جد صاحبنا. كان هذا الجد يقضي مع أصحابه أوقاتاً معينة، في الصباح والمساء، يقرأون أورادهم الخاصة. وكانت معظم الأسر الفجيجية تابعة لهذه الطريقة الصوفية أو تلك، وكان رؤساء هذه الطرق يزورون فجيج من حين لآخر، في مواكب فخمة فيها خدم وحشم. وما زال صاحبنا يحتفظ في ذاكرته ببقايا صور ومشاهد من التظاهرات التي كانت تقام بهذه المناسبة. ولعل أوضح مشهد يستطيع استرجاعه الآن هو منظر أطفال كانوا يلبسون ثياباً حمراء ويقومون بحركات غير مألوفة ويمشون وراء رجل يلبس قفطاناً أخضر وطربوشاً أحمر عليه حزام أبيض يمشي مشية المتبختر مع وقار، على حافة مصطبة دار الجماعة بـ «تاشرافت». وربما كان هذا الشخص رئيساً لطريقة أو واحداً من خاصته.

كانت لصاحبنا، إلى جانب جده وجدته من أبيه، عمتان. كانت العمة الكبرى شبه أرملة إذ كان زوجها قد سافر إلى ألمانيا للعمل هناك فانقطعت أخباره مع ظروف الحرب العالمية الثانية المتزامنة مع المرحلة التي نتحدث عنها من عمر صاحبنا... ومرت سنوات وسنوات، ووضعت الحرب أوزارها والزوج الغائب لا خبر عنه. أما

العمة فلم «تقطع الأمل»، كما يقال، ولم تكن تفكر أو لم تكن تريد طلب الطلاق منه باللجوء إلى القاضي حسب ما ينص عليه الشرع. لقد كانت النساء يقلن عنها إن فيها «راقداً»، بمعنى أنها حامل وأن حملها «رقدا» ولن يستيقظ إلا عندما يعود إليها زوجها. وفي هذه الحالة لا يجوز لها أن تتزوج قبل وضع ما في رحمها وقضاء مدة طهرها.

كانت هذه العمة مثالاً في الصدق والسذاجة، سذاجة براءة الأطفال، فلم تكن تعرف الكذب ولا المراوغة. وكانت كتومة تخفي ما بصدرها، فلا تشتكي ولا ترفض لأي من أفراد الأسرة طلباً. ويستطيع صاحبنا أن يلاحظ ـ اليوم ـ أن احترام جميع أفراد العائلة لها يرجع إلى مكانتها في نفوسهم بالدرجة الأولى ولكن ربما أيضاً إلى وضعيتها المأساوية كامرأة غاب عنها زوجها وانقطعت أخباره. وفي إطار هذه الوضعية يستطيع أن يفهم، اليوم، ما كانت تعنيه تلك الزفرات التي كانت هذه العمة ترسلها بنغمة حزينة كئيبة، خصوصاً خلال الليل والتي كانت توقظه من النوم عندما ينام معها وبجنبها. إنه ما زال يذكر تلك العبارة التي كانت ترافق زفراتها في نغمة استسلامية، عبارة: «هذا ما قدر الله»... وقد شاءت الأقدار أن يظهر الزوج بعد غياب طال ما يقرب من خمس عشرة سنة كان تزوج خلالها بسيدة ألمانية رزق منها أطفالاً، فلما عاد إلى البلد افترق الزوجان القديمان فراقاً رسمياً بعد خمسة عشر عاماً من الفراق العملي. وتزوجت هذه العمة الكبرى، كبرى بمحنتها وعفتها وصبرها، من رجل آخر ورزقت منه بنين وبنات.

أما عمته الصغرى، التي كانت آنذاك فتاة في مقتبل العمر حوالى الخامسة عشرة أو أقل قليلاً، فقد كانت متفتحة عليه وكان متفتحاً عليها: تلاعبه ويتطاول عليها فيضربها وينتف شعرها مزاحاً، وكانت أقرب أفراد الأسرة إلى عقله وسلوكه بوصفه طفلاً: كانت تذهب إليه، في منزل أهله من أمه، لتأتي به إلى منزل أبيه من حين لآخر، حاملة إياه على ظهرها تلتذ بما يمارسه عليها من صنوف المشاكسة: ينتف شعرها، ويعضها في كتفها ويضربها على جنبيها برجليه، واخزاً إياها كما يخز الفارس حصانه. ولم تكن مهمتها إزاءه تنتهي بالوصول به إلى بيت أبيها، إذ كان عليها أن تلازمه أينما تحرك، تحرسه وتلاعبه وتقوم على جميع أموره.

ومع كل العناية التي حظي بها صاحبنا من جميع أفراد عائلته، سواء أهله من جهة أبيه أو من جهة أمه، فإن الشخص الذي يستحق فعلاً أن يسمى مربي صاحبنا هو «الحاج محمد أولحاج» جده لأمه. لقد كان كلفاً بابن ابنته «الوازنة» العزيزة عليه

وعلى الأسرة جميعاً، ليس فقط لأنها كانت تحيا في وضعية الأرملة بسبب ذلك الطلاق الظالم، بل أيضاً لما كانت تتصف به من دماثة خلق وسلامة طبع، ينتزعان الاحترام. كان الجد، إذن، منشغلاً بحفيده أي انشغال، حريصاً على إرضائه، ساهراً على حركاته وسكناته، منذ أن ولد إلى أن صار تلميذاً في قسم الشهادة الابتدائية، حينما اختطفت منه المنون هذا الجد المثالي، في ظرف سنشرحه فيما بعد.

إن صاحبنا ليذكر جيداً كيف كان جده هذا يصحبه معه أينما ذهب، كيف كان يذهب به إلى منزل أهله من أبيه، مرة أو مرتين في الأسبوع، حيث يقضي معظم النهار ثم يعود ليرجع به، بعد انتظار أمام باب المنزل لمدد طويلة كانت تتجاوز أحياناً الساعة والساعتين، ليس لأن أهله من أبيه كانوا يمسكونه عن جده ذاك بقصد إذلاله، بل بالعكس، فلقد كانوا يحترمون هذا الجد «الفقيه» المنحدر من سلالة العلماء ويقدرون فيه حرصه على أن يبقى ولدهم على صلة دائمة بهم. إن انتظار هذا الجد أمام دار أصهاره القدماء كان بسبب أن صاحبنا كان ذا سلوك غريب في هذا الشأن: كان ألوفاً، يكره مغادرة منزل أهله لأمه، وفي نفس الوقت يمانع في العودة إليه عندما يكون في منزل أهله لأبيه. ويذكر صاحبنا أنه امتنع غير ما مرة عن العودة مع جده لأمه رغم توسلات جدته وعماته، فكان الشيخ الحاج محمد يعود كئيباً قلقاً حتى إذا أصبح اليوم التالي كان أول شيء يفعله بعد الرجوع من صلاة الصبح هو الذهاب للمرابطة أمام منزل أهل صاحبنا من أبيه ينتظره كي يعود به مع الضحى حاملاً إياه على كتفيه ماسكاً بكلتا يديه على رجليه كالعادة، يداعبه ويتحدث إليه بما يشوقه. ويعود الشيخ والطفل إلى «الوازنة» التي كانت تنتظر في مثل هذه المناسبات ابنها واقفة وراء باب الدار على أحر من الجمر، حتى إذا وصل اختطفته واحتضنته وصعدت به إلى مخدعها في الطابق العلوي لتنفرد به زمناً.

ولم تكن جدته لأمه أقل عناية به. لقد كانت امرأة قوية الشخصية متينة البنية صعبة المعاملة، فقدت بصرها في كهولتها. وكانت دائماً تشاكس وتخاصم زوجها الحاج محمد، فكان يقول لها: «إن ما أصابك من عمى إنما هو لطبعك وسلوكك». وكانت لهذا السبب لا تكلمه ولا يكلمها إلا عبر صاحبنا. وكما كان الجد يحرص على حمل حفيده على كتفيه، كانت الجدة تحرص هي الأخرى على حمله على ظهرها جالسة أو واقفة، سواء كان نائماً أو صاحياً، ذاهلاً أو لاعباً. أما عندما يحين وقت نومه أو عندما يكون في حالة شبيهة بالبكاء ـ وقلما كان يبكي بكاء حقيقياً ـ فإنها كانت تقف به وهو على ظهرها، تقطع المنزل ذهاباً وإياباً تشدو له وتغرد بصوتها

الجهوري مرددة أغاني بالأمازيغية فيها كثير من الحزن، وفيها كثير من الدفء، أغاني، أو أهازيج، تحكي ما تحس به الجدة في صدرها من يأس وحزن على حالها. ومن القصائد الحزينة التي كانت تشدوها باستمرار وهي «تُراري» له على ظهرها (= تهدهده)، قصيدة شهيرة بقيت بعض أبياتها راسخة في ذاكرته تنازع البقاء، منذ أن كانت جدته هذه تحمله على ظهرها. وقد استعادها كاملة بمساعدة صديق له كان من معلميه في الابتدائي. وفيما يلي مقطعان منها:

١ ـ أمّو إلا وُول إنُوخْ	هذه حال قلبي
فاجاتْ خْفِي آبابْ إنُوخ	فرج عني يا مالكي
٢ ـ إشوشن وول إنوخْ	قلبي كئيب
أَشّوشَّنْ نُوغلاسْ	كآبة الأسد
٣ ـ إتْسارانْ إِلخْلا	حين يجوب الخلاء
أُولْ يُوفي أَيْتماسْ	ولا يجد إخوته
٤ ـ إزّلْزْ وُولْ إنَوخْ	قلبي وجيم
أَزَيّلْزْ نُويْلاسْ	وجوم الزرع
٥ ـ مدّسْ تَكَّزْ تَقْشُوشْ	إذا أرسل ضفائره
إِيَحَفّتْ أُو خَّماسْ	قصها الفلاح
٦ ـ آزْواخ آ يُوما آ زواخْ	تعال أخي تعال
أَنّاليْ أَذرازْ نْراخ	نصعد الجبل ونروح
٧ ـ نعيذْ لْخْبازْ أَنَّخْ	نحكي أخبارنا
إزْوا وَاوَالْ إراخ	ذهب الكلام وراح
٨ ـ آ وُول إنوخّْ أَوَدّ ي	يا قلبي يا قلبي
آوَنَّ إكَدذْ أُويْدي	يا من نهشه الكلب
٩ ـ إسّنْسَرْ تَقذْ يت	سلخ اللحم
إِذْجيدّ إغَسّ أَمَقُّوز	وترك لي يابس العظم

١٠ ـ أَمُو إِلاّ وُولْ إِينوخ	هذه حال قلبي
أَمُو غانيمْ نو زَطّا	حال قصبة المنسج
١١ ـ إِ شال أَسّ أزرار	يقضي النهار كله
أَ يَتَّالِي أَلِيهَكّا	وهي تصعد وتنزل

وإلى جانب جدته لأمه كانت هناك زوجة خاله، تعامله هي الأخرى بنفس العناية التي كانت تعامل بها بنتها التي كانت في مثل سنه كما سبقت الإشارة إلى ذلك. كانت أم البنت عزيزة على جده، حميها، لدماثة أخلاقها وقيامها بشؤون المنزل. وقد بقيت تحظى بكامل الاحترام والتقدير من طرف حميها وحماتها وأم صاحبنا حتى بعد أن طلقها خاله بدعوى أنها لم تعد تنجب وأنها لم تلد له ذكراً وإنما بنتاً. وعبثاً حاول والده حمله على إعادتها إلى فراشه، فلقد كان هذا الخال متصلباً في رأيه وسلوكه، مثل صلابة عضلات جسمه. كان يعمل في الجزائر بمدينة خراطة وكان لا يعود إلا بعد سنة أو قريب منها ليمكث مدة ثم يرجع إلى مقر عمله، وكان يسلم إلى والده ما يوفره من دراهم ليشتري أرضاً أو حصصاً في ماء عين «تزادرت». لقد كان من يملك حصصاً من ماء تزادرت كمن يملك الذهب: سلعة عزيزة لا تبور قيمتها ولا تنقص بل ترتفع باستمرار، وما زالت كذلك إلى اليوم.

كان الجد، والد الخال، يخزن ما يدع عنده ابنه من دراهم وسط كنانيش أو قصبات يضعها في أماكن لا يطلع عليها أحد غير حفيده الوحيد، صاحبنا. لقد كان يأتمنه على كل شيء، بل كان يسترضيه بهذا الامتياز، وكان الجميع يعرف ذلك وفي مقدمتهم الخال الذي نتحدث عنه. كان يعرف منزلة ابن أخته عند أبيه، فكان إذا أراد شيئاً من هذا الأخير، لا يستطيع مكالمته فيه أو يعتقد أنه لن يستجيب له، فزع إلى ابن أخته وكلفه بالمهمة لأنه يعلم أن الجد لا يخالف لحفيده رغبة.

وإن صاحبنا ليتذكر بكامل الوضوح كيف أن هذا الجد غضب غضباً شديداً عندما ترامى إليه أن ابنه، الخال الذي نتحدث عنه، ينوي الزواج من فتاة كانت تصغره كثيراً إذ كانت قريبة من عمر صاحبنا ومعروفة عند أهل البلد بجمالها. حاول الخال إقناع والده بتوسط بعض وجهاء البلد، ولكن دون جدوى. وأخيراً لجأ إلى ابن أخته، الطفل الصغير الذي لم يكن عمره يتجاوز العاشرة، وكلفه بإقناع الجد بدعوى أنه ـ أعني الطفل ـ يريد أن يلعب مع هذه البنت عندما تصبح زوجة خاله. كان الجد قد التجأ غاضباً إلى قصر «المعيز» عند أقاربه من أحفاد سيدي عبد الجبار.

ضريح سيدي عبد الجبار هذه المرة لأداء مهمة، فوجد جده داخل الضريح منهمكاً في الدعاء، فاقترب منه وجلس إلى جانبه وأخبره بما جاء من أجله، فلم يزد الجد على أن قال: «اللهم هذا ما كتبت، اللهم اجعل العافية بخير»، ونهض يمسك بيده اليمنى عصاه التي يتكىء عليها وبيده اليسرى يد حفيده، وعاد إلى المنزل وأعلن موافقته على زواج ابنه من تلك البنت.

جميع ما سبق من الذكريات تمت وقائعها في السنوات الأولى من عمر صاحبنا، قبل الثانية عشرة من عمره. دليله على ذلك أنها تمت جميعاً قبل دخوله المدرسة الوطنية، مدرسة النهضة المحمدية التي دشنت عام ١٩٤٦. (وكان قد ولد صباح يوم عيد الفطر من سنة ١٣٥٤ هجرية، حسب ما وجده مقيداً في دفتر من دفاتر جده لأمه، وذلك يوافق يوم ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٥. وقد سجله والده فيما بعد بدفتر الحالة المدنية ضمن مواليد ١٩٣٦).

لقد عاش طفولته الأولى، إذن، في جو من الرعاية البالغة، كما بيّنا، سواء من جهة أهله لأمه أو من جانب أهله لأبيه. وإذا كان يستطيع أن يؤكد أنه لم يحدث له طوال هذه المرحلة من عمره ما يكدر عليه صفو ذكريات طفولته، فإنه مع ذلك يشعر أنها لا تمده بأية صور أو مشاهد عن أبيه وأمه مجتمعين. لقد رأى النور في منزل أخواله وتردد كثيراً على منزل أبيه، محفوفاً بكل رعاية، لا شيء يكدر صفو خاطره. ولكنه لم يعِ إلا في مرحلة لاحقة أن الوضع الطبيعي هو أن يكون الابن في حضن أمه وأبيه معاً وفي وقت واحد وتحت سقف واحد. على أنه إذا كان يحس منذ شبابه بثغرة في ذكريات طفولته الأولى فإن ذاكرته خالية بالمقابل من أي مشهد يسجل خصومة ما بين أبيه وأمه. إنه لم ير قط ولم يسمع أبداً ما من شأنه أن يخدش في علاقة أبيه بأمه. لم يكن أي منهما يسأله عن الآخر، فلقد كان ذلك «عيباً» ما داما في حالة طلاق، سلوكاً لا يليق كما علم ذلك من بعد. ومع ذلك فلقد كان يشعر منذ فتح عينيه على أمه وأبيه، منفصلين كل منهما في منزل أهله، بأن أمه كانت تحب أباه وأن أباه كان يحب أمه ولم يكن بُعد أحدهما عن الآخر يعني لديه أي شيء في طفولته الأولى. كان له أب، وكانت له أم، وكان له جد وجدة وخال وعمات، وكان الجميع شديد العناية به، شديد الحب له. وكان هو نفسه يحس بهذا، غير أن عناية جده لأمه به كانت تفوق كل عناية مما جعل طفولته الأولى ترتبط في ذاكرته بأخواله أكثر من ارتباطها بالطرف الآخر.

هذه الحقيقة بكل حياد وموضوعية من خلال استعادته لذكرياته مع رفاق الصبا الذين كان يلعب معهم قبل دخوله المدرسة. لقد كانوا جميعاً من جيران أخواله الذين كان منزلهم في وسط المدينة، بعيداً عن منزل أهله من أبيه الذي كان يقع في حي آخر. كانت بنت خاله رفيقته الأولى في ألعاب الصبا، وكان يعاملها معاملة الأخ لأخته بما في ذلك استعلاء الأخ على الأخت والتصرف معها بقسوة أحياناً. كانت أمها مطلقة هي الأخرى، كما أشرنا إلى ذلك قبل، عرفها قبل طلاقها وهو يحبو، وعرفها بعد ذلك وهو صبي يخطو على رجليه، فكانت له بمثابة الأم الثانية. كانت جدية متزنة محتشمة مثل أمه، وكانت من عائلة فقيرة. كان صاحبنا يزورها، بعد طلاقها، برفقة ابنتها، في بيت والدها المتواضع، فكانت تحوطه بكل ما تملك من حنان مما جعل صورتها تنطبع في ذهنه جنباً إلى جنب مع صورة أمه. والحق أنه لا يستطيع أن يتذكر كيف كان يفرق بينهما في وجدانه، وإن كان يتذكر بوضوح أنها كانت أكثر بياضاً من أمه وأطول منها قليلاً مع شعر أخف وأقصر. كان ارتباطه بها أشبه بارتباطه بأمه، بل إنه كان يشعر معها بانبساط أكثر إذ كانت تلاعبه وتداعبه، بينما كانت أمه على درجة أكبر من الوقار الذي يميل بصاحبه إلى نوع من الانطواء. لقد ورثت منها ابنتها تلك الصفات، المعنوية منها والجسمية، فكان صاحبنا يذوب فيها أو معها، حين اللعب، كما كان يذوب في حجر أمها وهي تداعبه وتسليه.

وعندما بدأ صاحبنا يخرج إلى الشارع تصادق مع طفل في مثل سنه يسكن قريباً من منزل أمه، لا بل كان المنزلان المتلاصقان يسند أحدهما الآخر ويسندهما معاً من الخلف، المسجد الكبير، الجامع. كان ابن الجار ـ واسمه «حمو زايد»، بينما كان صاحبنا يوم ذاك يدعى «حمو عابد» ـ كان طفلاً في مثل سنه: ما بين الثانية والثالثة من عمرهما، حينما بدآ يلعبان معاً أمام منزلي أهلهما أو في دكان والد صديقه الذي كان بداخله باب يؤدي إلى الدار. ومع أن صاحبنا يستحضر في وجدانه بوضوح كيف كان أحدهما مشدوداً إلى الآخر برباط من الصداقة والمحبة البريئة فإنه لا يتذكر من وقائع عشرتهما سوى واقعة واحدة غطت على كل شيء يتعلق بذكرياته معه. كانت أشغال «التويزة» ـ أعني العمل الجماعي التطوعي ـ جارية على قدم وساق لتجديد جانب من سقف المسجد الجامع المجاور لبيت صاحبنا، بعد أن كانت بعض

وأعجازها، يوضع التراب فوقها مبللاً بالماء، ويلكز بالملاكز إلى أن يصير جسماً واحداً متماسكاً. أما بيوت الضيافة والمساجد فكانت تسقف بعيدان الدفلى، تقطع قطعاً بطول الشبر وتصفف بين الأعمدة المصنوعة من أعجاز النخل ثم يوضع التراب المبلل الممزوج بالجير فوقها ويلكز لكزاً. وكانت عيدان الدفلى تصبغ بألوان زاهية، الأخضر والأحمر في الغالب، فكان ذلك هو المظهر السائد للزينة والزخرف في البناء بهذه المدينة الصحراوية.

كان رجال «التويزة» منهمكين في لكز سقف المسجد بملاكزهم الخشبية، الواحد منهم جنب الآخر على شكل دائرة تارة، والواحد منهم وراء الآخر على شكل خطوط متوازية تارة أخرى. كانوا يتحركون بوتائر متناغمة وينشدون أناشيد جماعية فيتناغم صوتهم الجماعي مع إيقاع الملاكز على أرضية سقف المسجد. كان هذا المنظر يغري الأطفال فكانوا يقلدون الكبار على جوانب السقف أو قريباً منهم على الأمكنة التي انتهى العمل فيها وصارت متماسكة شبه يابسة. وإن صاحبنا ليذكر بكامل الوضوح كيف أنه كان ذات صباح، والشمس تتقدم ببطء نحو كبد السماء، يلعب مع صديقه «حمو زايد»، يجريان على السقف، تارة بين اللاكزين وتارة وراءهم. وفي لحظة من اللحظات لم يشعر صاحبنا إلا والقسم الأعظم من الرجال اللاكزين يختفون. لقد ابتلعتهم الأرض ابتلاعاً: لقد هوى بهم سقف المسجد فصاروا تحت ركامه. ولم يشعر صاحبنا الذي كان يجري خلف صديقه الصغير إلا ويد قوية تمسكه من خلف وتلقي به بعيداً إلى الوراء... لعلها كانت يد أحد الرجال الذين كانوا يجمعون بعض الأدوات خلف اللاكزين، بل لعل صاحبنا قد قفز إلى الخلف من تلقاء نفسه قفزة خيل إليه، بسبب هول المشهد، أن قوة عظمى هي التي أمسكت به بعنف وقذفت به بعيداً، عقاباً له على اقترابه من الرجال اللاكزين الذين كانوا يطردون الأطفال باستمرار ويمنعونهم من الاقتراب من الأمكنة التي لم تجف بعد.

وقف صاحبنا بعيداً، إلى الخلف، يجول ببصره بحثاً عن صديقه، ولما لم يجد له أثراً اندفع يجري نحو حافة الطرف الذي هوى، وما إن اقترب منها حتى شعر بالسقف يتحرك تحت قدميه ويهوي ببطء فقفز قفزة واحدة لا يذكر منها إلا أشعة الشمس التي واجهت عينيه بقوة وكأنها حبال انتشلته انتشالاً من بئر عميقة. ولا يذكر صاحبنا شيئاً بعد ذلك سوى أنه ارتمى في حضن أمه التي كانت واقفة وسط بهو الدار تصيح: «ابني... ابني...» لقد سمع الجيران بسقوط سقف المسجد

فتداعوا إلى المكان. . . أما هي، التي كان الخروج من الأمور التي لا تليق بها، فهي ابنة الشرفاء «أولاد الحاج» الذين لا يكشف لبناتهم وجه، وهي بعد مطلقة ملازمة للبيت من أجل ابنها ـ أما هي فما كان لها أن تغادر بهو المنزل ولا أن تقترب من الباب ولا أن تصعد إلى السطح. لقد وقفت إذن في وسط بهو المنزل تصرخ: «ابني. . ابني. . .» لقد خافت عليه أن يكون قد هوى به سقف المسجد. ولكن ما إن ظهر أمامها يجري نحوها حتى قفزت إليه وخطفته خطفاً إلى حضنها ثم انحنت عليه بكامل قوامها وكأنها تريد انتزاعه من هذا العالم والرجوع به إلى جوفها. . . أجهشت بالبكاء وجلست ممسكة بالأرض أن تميد بها. ولم تمض إلا دقائق حتى عرف أهل الحي جميعهم أن «حمو زايد» يبحثون عن جثته تحت الأنقاض، وأن «حمو عابد» نجا بأعجوبة.

لم تكن صداقة الطفلين قد دامت زمناً طويلاً، إذ لم يكونا قد تجاوزا الخامسة من عمرهما عندما وقعت هذه الواقعة. ومع ذلك فالمدة التي عاشها صاحبنا في رفقة صديقه، يلهوان ويلعبان، قليلاً ما يفارق أحدهما الآخر، قد تحولت في ذاكرته إلى دهر بأكمله، إلى زمان لا بداية له ولا نهاية، إلى حضور دائم لم تنل منه الحوادث ولا تعاقب الأيام شيئاً. إنه يتذكر جيداً أن علاقته بصديقه «حمو زايد»، أول صديق له، كانت أشبه بعلاقة المتصوف مع ربه. إن صداقة الأطفال تنطوي على أسرار لا يعرفها الكبار، أسرار فقدوها نهائياً عندما فقدوا براءة الأطفال.

كان سقوط سقف المسجد من الحوادث التي يؤرخ بها في قصر زناكة. لقد كان وقعه في النفوس كبيراً وعميقاً: فالضحايا عديدون من بينهم ثلاثة أطفال صغار علاوة على صديق صاحبنا. وقد دفنوا في مقابر خاصة تتميز بها مقابر الشهداء. وقد عرف صاحبنا ذلك في مرحلة لاحقة. أما عن الحادثة نفسها فإن ما يتذكره، إضافة إلى ما ذكرنا، هو أن وفاة صديقه، ذلك الطفل الوسيم، قد نزلت على الحي كله كالصاعقة. لقد كان وحيد أبيه الذي كان كهلاً في الأربعين أو يزيد، ولم يرزق قبله بمولود، مما زاد من هول المأساة وجعل أهل الحي يشعرون وكأن المصيبة مصيبة الحي بأجمعه.

لم يمر وقت طويل ـ فيما يبدو ـ حتى انخرط صاحبنا في جماعة من أطفال الحي ـ حي أهله لأمه ـ كانوا يلعبون ألعاباً جماعية كـ «الغبارة» أو «تيمنفولي» و «النيبلي» (كرات صغيرة من الحديد أو الزجاج) و «لعداد» (= العد والحساب: ينقسم الأطفال إلى مجموعتين متباريتين وينتشرون في الأزقة المسقفة المظلمة يملأون

الخصم لا يكتشفها، ثم بعد مدة يتنادون، إيذاناً بأن الفريقين قد انتهيا من وضع التلال كمرحلة أولى، ثم ينتشر كل فريق يبحث عن تلال الخصم ليهدمها. وبعد الانتهاء من هذه العملية يتنادون من جديد «لعداد.. لعداد»، فيسرع كل فريق بمرافقة الفريق الآخر إلى الأماكن التي خبأ فيها تلاله ليعد كم بقي له منها، والفريق الذي يبقى له أكبر عدد منها هو الفائز).

كانت هذه الألعاب خاصة بالذكور من الأطفال ما عدا «الغبارة» التي كان يلعبها البنون والبنات، ولكن في غير اختلاط، في الغالب. كانت هناك ألعاب خاصة بالبنات وفي مقدمتها صنع العرائس مما يفضل من خيوط الصوف التي تصنع منها المنسوجات، خصوصاً الملونة منها. ولم تكن البنات ولا النساء عموماً يمارسن التسريد (التريكو). لقد كان ذلك من اختصاص الشبان، يصنعون الجوارب والقفازات و «الطاكيات» وغيرها مما يوضع على الرأس. لقد مارس صاحبنا، كبقية أبناء جيله، هذه الألعاب والمهام ولكن في غير إدمان.

على أن أهم لعبة كانت تنفرد بها الفرقة التي انضم إليها صاحبنا في هذه الفترة من عمره هي لعبة «الرباط». كانت الفرقة تتألف من نحو عشرة أطفال يقودها شاب يكبرهم بنحو خمس سنوات ـ كان في الخامسة عشرة ـ كان معروفاً بجموح الخيال إلى درجة الهوس. كان يذهب بالأطفال إلى خارج قصر زناكة، إلى السهل الممتد شرقاً والمسمى «بغداد». هناك بعيداً من الأحياء والبساتين كانوا يبنون بالتراب والأحجار وبالماء الذي يحملونه من عين قريبة، وبتوجيه وإشراف من قائدهم، مدينة أطلق عليها هذا الأخير اسم «الرباط». لم يكن غالبية الأطفال يعرفون معنى «الرباط»، ولا يتذكر صاحبنا أنها كانت تعني بالنسبة إليه شيئاً آخر غير مدينتهم تلك، ولربما كان يتخيل في شحوب أنهم يقلدون شيئاً بعيداً، مكاناً يقع على الطرف الآخر من العالم.

كان قائد هذه الفرقة ذا خيال مبدع كما قلنا، كان يعرف كيف يحمل الأطفال على العمل: يجلبون التراب والحجر والماء، وكان يذهب بهم إلى «مزبلة» الجالية الفرنسية في قرية بني ونيف على بعد بضعة كيلومترات، يجمعون علب السردين الفارغة وما يقعون عليه من آلات حديدية وأسلاك ليصنعوا منها سيارات وقطارات وعربات تجوب شوارع مدينتهم. كان القطار الذي صنعوا عرباته من علب السردين، المشدودة إلى سلك، يجري بسرعة إذ كانوا يربطونه بذيل ضب. وكانوا يصطادون

الضباب من الأماكن القريبة ويخيطون أفواهها حتى لا تعضهم. ومع أن صاحبنا يذكر أنه كانت هناك وسط «الرباط» كومة من التراب عليها بناء خاص فإنه لا يستطيع أن يجزم هل كان هذا البناء قلعة أم كان قصراً. كل ما يذكره أنهم كانوا يستيقظون باكراً ويملأون جيوبهم بالتمر ويذهبون للعمل في «الرباط» طول النهار: ينظفون الأزقة ويعيدون بناء ما تهدم ويوزعون الأدوار بينهم. ولم يكن ذووهم يقلقون عليهم، فلقد كان سكان الحي جميعاً، كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، على علم بـ «الرباط»، مدينة الأطفال.

* * *

لا يتذكر صاحبنا من أفراد هذه الفرقة سوى رئيسها وطفل كان في مثل عمره هو، ومن عائلة رئيس الفرقة. كان هذا الطفل هو ثاني صديق لصاحبنا بعد وفاة صديقه الأول في حادثة المسجد. كانت الصداقة بينهما من جنس الصداقة التي كانت قائمة بينه وبين هذا الأخير: يلعبان معاً ويمكث الواحد منهما ساعات طوال مع الآخر في منزل أهله، لا يكاد أحدهما يفارق الآخر.. إن صاحبنا ليتذكر جيداً، وبوضوح كامل، أنه كان إذا تصادق مع طفل ارتبط معه بكل جوارحه، وإذا أحب أحداً أحبه بكل كيانه. ويبدو أن الأطفال جميعاً هم على هذه الحال، وأن ما تعنيه عبارة «براءة الأطفال» هو، أولاً وقبل كل شيء، هذا الإخلاص في الصداقة والمحبة، إخلاصاً لا يلابسه أي هدف آخر سوى المحبة نفسها.

ويبدو لصاحبنا من خلال استنطاق ذكرياته واستبطانها أن البطانة الوجدانية التي تؤطر صداقة الأطفال هي من جنس تلك الروابط التي تشد بألف وثاق العشاق بعضهم إلى بعض مع فارق واحد، وهو أن حرارة انشداد الأطفال الأصدقاء بعضهم إلى بعض تقوى مع دوام الاتصال، في حين أن لهيب حب العشاق لا يتوهج إلا في حال الفراق، وغالباً ما تخبو ناره مع دوام الوصال. إن عالم الطفل ينحصر أو يكاد في صديقه أو لعبته، تماماً مثلما ينحصر عالم العاشق في معشوقه. وإذا كان حب العاشقين يتجه دوماً نحو غاية تقع خارجه هي «الوصال» وذوبان الواحد منهما في الآخر، مما يجعل منه سلوكاً «غير» بريء، فإن حب الأطفال بعضهم لبعض في إطار صداقة الصبا يخلو من كل غاية أو غرض يقع خارجهما. إنها المحبة الناشئة عن استمرار الاتصال والاشتراك في عالم من التصورات التي تشكل مجال «الوصال» بينهم، ولذلك فهي محبة بريئة تماماً. لذلك قلنا إنه قد لا يكون لمفهوم «براءة

ويمكن للمرء أن يلاحظ الفرق بين السذاجة والبراءة في سلوك الأطفال من خلال «لعبة الزوج والزوجة». إنهم في هذه اللعبة يتصرفون لا بـ «براءة الأطفال» بل بحيلة ومهارة ساذجتين يخفون بهما سلوكهم على ذويهم، غير هادفين إلى الحصول على أية متعة سوى متعة «الخفي» و «الممنوع»، تدفعهم إلى ذلك الرغبة في تقليد الكبار. وإن صاحبنا ليتذكر بوضوح كيف كان هو وزملاؤه من أبناء الحي وبناته ـ دون الثامنة ـ يقيمون على سطح أهله من أمه «خيمة» بواسطة برنوس يرفعونه بعمود من داخل القلنسوة ويتخذون منه بيتاً لعريسين: طفل وطفلة. كان «الزواج» يقتصر على دخول الولد مع البنت إلى «الخيمة» ثم يخرجان في الحين وكأنهما يقيمان الدليل على أنه لم يجر بينهما شيء... وكان الأطفال، خارج الخيمة يقفون كالحراس وكأنهم بذلك يريدون تشديد المراقبة والوقوف ضد حدوث أي شيء آخر غير تمثيل دور «الزوج والزوجة» المقتصر على دخول «المخدع» والخروج منه. ومع ذلك فإن صاحبنا لا يستطيع أن ينسب هذا الحذر والمراقبة اللذين يقوم بهما الأطفال الصغار في مثل هذه المواقف إلى الوعي بحقيقة العلاقة الجنسية ولذتها، ولا أن ذلك يحدث بدافع هذه الغريزة. إن الأطفال في مثل هذه المواقف أقرب ما يكونون إلى تقليد الكبار في ممارسة السلطة، سلطة المراقبة، منهم إلى أي شيء آخر. وليس من المؤكد أن الطفل، ذكراً كان أو أنثى، يحس بأي إحساس جنسي واع عندما يلامس أحدهما الآخر أو يلتقي عضو أحدهما مع أية منطقة في جسم الآخر، كما يحدث لهم عندما يسبحون في السواقي أو في الصهاريج التي كان صاحبنا ورفاقه الصغار يقضون فيها ساعات طوال في فصل الصيف يسبحون ويتبارون في القفز إليها من أعلى النخل المطل عليها، أو يجري بعضهم وراء بعض في الماء للقبض عليه ومحاولة إغراقه، عراة بالكامل إذ لم يكن الطفل ـ ولا الشاب ـ يلبس تباناً أو سترة ما، عند السباحة زمن طفولة صاحبنا، ولذلك كان الشبان يتحرون الوقت المناسب للخروج من الماء، وإلا فاليد تقوم مقام السترة بالنسبة للعورة لبني آدم منذ بدء الخليقة...

ليس من المؤكد أن الأطفال في مثل هذه الألعاب والممارسات يحسون بأي إحساس جنسي واع عندما يلامس أحدهما الآخر حتى ولو كان ذلك في الأعضاء المختصة في اللذة الجنسية. إن عملية التخصص هذه لا تبدأ إلا لاحقاً، ولربما كانت «علامات البلوغ» إيذاناً بحدوث هذا التخصص. صحيح أن الطفل يلهو

بعضوه التناسلي، وقد ينتعض هذا الأخير أو يعمل الطفل على انتعاضه، غير أن اللذة التي يشعر بها ليست اللذة الجنسية بل هي إلى لذة الشعور بالملكية أقرب، لذة امتلاك شيء لا تمتلكه البنت، أو امتلاك شيء يكبر وينتصب ولا يبقى دائماً في حالة ارتخاء وضمور. وصحيح كذلك أن الأطفال يتلذذون بالبيلة الطويلة، وكثيراً ما يتبارون في ذلك. ولكن ليس من المؤكد، حسب ما يستعيده صاحبنا في ذاكرته، أن اللذة التي يحس بها الأطفال في هذه التجربة هي لذة جنسية. إن الإحساس العام المرافق لهذه التجربة هو نوع من الزهو الناتج عن شعور الطفل بأنه يبرهن من خلال هذه العملية على أنه قد أصبح رجلاً أو يكاد. إن طول البيلة يقترن في تصور الطفل بطول القامة وطول العمر. إن الأمر يتعلق إذن بنوع من تحقيق الذات يشعر الطفل معه أنه لم يعد ذلك الصبي الذي لا يتحكم في بوله، فيطلقه على سيقانه وثيابه ويتعرض للوم ولربما لنوع من العقاب الجسدي، كما يحصل لـ «الصغار»، بل إنه الآن كبير مثل الكبار يتحكم في ما بداخل جسمه، يملكه ويتصرف فيه كما يتصرف الكبار في أشياء العالم. إن الشعور بممارسة «السلطة» مقروناً بـ «الملكية» ربما كان أقرب من غيره إلى تفسير ذلك الزهو الذي يشعر به الطفل في تجربة «البيلة الطويلة». وأغلب الظن أن فرويد لم يقصد بمفهوم «الليبيدو»، عندما يتعلق الأمر بالأطفال الصغار، أكثر من هذا النوع من الإحساس باللذة الذي يمتزج فيه الزهو بتحقيق الذات بالشعور بامتلاك شيء وممارسة السلطة عليه أو من خلاله.

وعلى كل حال فمن الواضح تماماً أن الطفل عندما يقلد الكبار لا يفعل ذلك لأنهم طوال القامة أو كبار السن بل لأنهم يمارسون «السلطة». الكبير في تصور الطفل هو الذي يصدر الأوامر والنواهي، ويثيب ويعاقب، ولذلك تراه يتحدث باستمرار إلى لعبه وأدواته بلغة الآمر الناهي، يداعب تارة ويعاقب أخرى. ولعل هذا المفهوم الطفولي لـ «الكبير» هو الذي يفسر كون الناس يطلقون على أولئك الذين يمارسون السلطة في المجتمع عبارة «كبار القوم». دليل ذلك أننا كثيراً ما نتمم هذه العبارة بعطف بيان فنقول: «كبار القوم وسادتهم». والأمازيغية مثلها مثل اللغة العربية في هذا الشأن. فكلمة «أمقران» تعني الكبير مادياً، طولاً أو حجماً أو ثقلاً، كما تعني «الكبير» بنسبه وحسبه وأيضاً بطموحاته، بينما تعني كلمة «أمزيان» الصغير مادياً والصغير معنوياً، إضافة إلى معنى الصغار (بفتح الصاد) عندما تقرن بكلمة «الحالة» (= «أمزيان أنحالت»: وضيع السلوك قليل المروءة).

الفصل الثاني

ـ ١ ـ

مرت وقائع الذكريات السابقة، في جملتها، قبل دخول صاحبنا «المسيد» (الكتاب). غير أن ذلك لا يعني أنه كان لا «يقرأ»، فقد كان جده لأمه يلقن حفيده بعض السور القصيرة من القرآن وآيات أخرى مثل آية الكرسي وبعض الأدعية كدعاء القنوت... وإذا كان لا يتذكر وقائع يوم دخوله المسيد أول مرة، فإنه يتذكر بوضوح أن جده كان يحمله كل صباح إلى المسيد المجاور للمسجد الكبير الجامع على مسافة قصيرة من منزله. كان المسيد في الطابق الأول فوق سقيفة المسجد وبيت الوضوء، وكان يشتمل على ثلاث غرف: كانت غرفة الصغار في منتصف السلم المؤدي إلى السطح بينما كانت الغرفتان الأخريان على السطح وكانتا خاصتين بالكبار. كان هؤلاء ممن أنهوا «السلكتين»، أعني ممن حفظ القرآن مرتين واستقر كله أو معظمه في ذاكرتهم، وكان منهم من كان يكتب على لوحته منظومة «النُصرى»، الخاصة بقواعد كتابة القرآن على طريقة المصحف، وكان منهم من يكتب «الأجرومية» أو «ابن عاشر» أو «الألفية». وكان حفظ هذه المنظومات واستظهارها عن ظهر قلب ـ وفي الغالب بدون فهم المعنى ـ يشكل الخطوة الأولى في الانتقال من مرحلة حفظ القرآن إلى مرحلة حفظ «العلم».

على أن أبرز ما كان يشد صاحبنا إلى «الكبار» منذ دخوله «المسيد» هو الطريقة التي يقرأ بها أحد الشبان القرآن. لقد كان جهوري الصوت يجود القرآن على طريقة أهل تافيلالت التي تنميز بنبرات موسيقية. كان الالتحاق بمرتبة «الكبار» هو كل طموح أولئك الصبية الصغار الذين كانوا يكثرون من الصعود إلى «السطح» حيث

«الكبار»، تارة بدعوى تنشيف ألواحهم في الشمس بعد أن يكونوا قد غسلوها مما سبق أن كتبوه فيها من آيات قرآنية وبعد أن يطلوها بالصلصال، وتارة بدعوى الصلاة. . . وكان غرضهم هو الإطلالة على غرف الكبار والاستماع إليهم وهم يحفظون «العلم» أو يجوّدون القرآن.

لم تكن غرف المسيد مفروشة ولا كانت فيها مقاعد، وإنما هو الحصير في الصيف، والحلفاء في الشتاء. كانت تنشر أكوام من هذا النبات، الذي تصنع منه الحبال وأشياء أخرى، على الأرض كما على جوانب الجدران لتشكل حاجزاً يقي الجالس عليه من برودة أرضية المسيد، في هذه المنطقة التي تتميز ببرد قاري قارس أثناء فصل الشتاء، برد لا تعدله شدة إلا حرارة الصيف.

كانت غرفة الصغار واسعة نسبياً تتخللها كوات يدخل منها الهواء وضوء الشمس، في وسطها سارية، وفي الواجهة الأمامية مصطبة من الطوب ملاصقة للجدار الأمامي يجلس عليها «الفقيه» مفترشاً «هيضورة» (سجادة من جلد الخروف وصوفه. . .). وبجانب الفقيه ثلاث عصي، صغرى للأطفال الصغار القريبين منه، ووسطى للذين يجلسون في الوسط، وطويلة لمن هم في الأطراف، وكانوا في الغالب من كبار السن. كان هؤلاء الأطفال يجلسون على الحصير يحيطون بالفقيه على شكل هلال مر عليه أكثر من نصف شهر. كان الفقيه يتولى بنفسه أو يكلف بعض «الكبار» كتابة آيات من القرآن على ألواح الصغار المجللة بالصلصال، وكانت الكتابة بالحفر عليها بواسطة قلم من القصب وبدون مداد (تسمى هذه الكتابة بـ «التعليمة»: وضع العلامات) وكان على الطفل المبتدىء أن يتتبع بقلمه الذي يغطسه بين حين وآخر في دواة من «السمق» (نوع من المداد يستحضر بحرق الصوف ومواد أخرى، ويوضع في الدواة مع الماء وقطعة صوف تتشرب السائل كالإسفنج وفيها يغطس القلم). هكذا كان الأطفال يتعلمون الكتابة، لا حرفاً حرفاً، بل انطلاقاً من كلمات وعبارات على طريقة «الجشطلت» (= الصورة أو الشكل أو الصيغة، ويطلق هذا الاسم كذلك على مدرسة ألمانية في علم النفس تنطلق من هذا المبدأ، فترى أن الإدراك يكون أول ما يكون للصور وللصيغ، أي للكل وليس للأجزاء) وعندما ينتهي الأطفال من الكتابة يأخذ الفقيه أو من يكلفه بذلك بتحفيظهم ما على ألواحهم متتبعين بإصبعهم الكتابة المرسومة فيها. وعندما يحفظ الطفل لوحته من وجهيها يتقدم إلى الفقيه لـ «يعرض» ـ عليه فإذا أجاد سمح له بمحو لوحته بالماء ثم

يجللها بالصلصال من جديد لـ «يُعلِّم» له عليها الفقيه أو من يكلفه بذلك وهكذا دواليك.

وعندما يتدرب الطفل على الكتابة والقراءة والحفظ بهذه الطريقة يكون قد حفظ بعض السور القصار فينتقل إلى المستوى الثاني ويجلس في وسط المسيد في الغالب يكتب بنفسه مباشرة على لوحته: يملي الفقيه عليه الآيات القرآنية كلمة كلمة: يلتقط الطفل الكلمة ويرددها على مسامع الفقيه، فإذا لم يعقب هذا الأخير بشيء فمعنى ذلك أن تلفُّظ الطفل بالكلمة يخلو من الخطأ، وحينئذ يشرع الطفل في كتابتها حتى إذا انتهى رفع يده قليلاً وصاح: «زد يا سيدي...»، ثم يذكر الكلمة التي كتبها فيملي عليه الفقيه الكلمة الموالية في الآية فيرددها الطفل بصوت مرتفع ويكتب، وهكذا إلى أن تمتلىء لوحته. إنها طريقة تبدو بسيطة وعملية، غير أن ما يثير الاندهاش فيها هو أن الفقيه يتعامل بنفس الطريقة، وفي آن واحد، مع أطفال عديدين قد يتجاوزون العشرة والعشرين! هذا يصيح: «زد يا سيدي...» ويذكر كلمة من سورة، وآخر يفعل الشيء نفسه ويذكر الكلمة من سورة أخرى، ثم ثالث فرابع الخ... والفقيه يجيب كل طفل بصورة آلية تلقائية، فيملي في نفس الوقت من سور مختلفة بمجرد سماع الكلمة، ولا أقول العبارة أو الجملة. إن الفقيه في هذا الموقف أشبه بحاسوب (دماغ إلكتروني) أُدخل القرآن في «ذاكرته» ورتب برنامج عمله ليعطيك الكلمة الموالية لأية كلمة في أية آية وفي أية سورة بمجرد ما تنطق بها، بمجرد ما يسمع «زد يا سيدي»... بمجرد ما تضغط على الزر! كان هذا شأنه مع الأطفال من المستوى المتوسط. أما المتقدمون الذين يجلسون في الوراء عادة فيملي عليهم جملاً كاملة يعيدونها على مسمعه ثم يكتبون. ثم بعد ذلك: «زد يا سيدي...» وهكذا.

كانت الكتابة تتم في الصباح غالباً. أما بقية النهار فتخصص للحفظ: كل طفل يكرر جهاراً الآيات المكتوبة على لوحته، وفي الغالب يميل بجسمه إلى أمام وإلى خلف، أو يميناً وشمالاً، والفقيه ينصت للجميع يصحح الخطأ ويراقب النطق ويشهر بعصاه القصيرة أو المتوسطة أو الطويلة، حسب الحالة، على الأطفال الذين يلهون ويلعبون أو يتثاءبون وينامون. كانت العصا تأتي إلى الطفل لتقع على رأسه على حين غرة، وإن هو سبقها ومال أدركته على كتفه أو يده، وفي جميع الأحوال فقليلاً ما تخطئه، وإذا أخطأته كانت من نصيب جاره. وبالمقابل قد يحدث أن يغمض الفقيه جفنيه تحت وطأة النوم الذي يستدعيه ذلك الضجيج المرهق والرتيب ونقص الهواء

(الأوكسجين) بسبب الازدحام والتنفس. وفي هذه الحالة يغتنم الأطفال الفرصة فيتحررون قليلاً، يلتفتون إلى بعضهم بعضاً وقد يشاغبون أو يضحكون أو يتصارعون حسب درجة استغراق الفقيه في غفوته، ولكنهم كثيراً ما تفاجئهم العصا فوق رؤوسهم، عصا الفقيه الذي يستيقظ ويضرب يميناً وشمالاً فتُدمي رأس هذا وتُوجع كتف ذاك وقد تُنقض ظهر آخرين ممن ينحنون هرباً منها.

أما إذا ارتكب طفل ما مخالفة تستوجب العقاب أو جاء به أبوه يشكوه إلى الفقيه فإن «الفلقة» عقابه: يحمله طفلان من ذوي البنية الصحيحة على أيديهم ويمسك ثالث برجليه موجهاً بطن قدميه نحو العصا التي تنهال عليهما من الفقيه نفسه أو ممن ينيبه عنه من «الكبار»، والطفل المعاقب يصيح ويتدافع، ولا ترفع عنه العصا إلا عندما يقدر الفقيه أنه قد استوعب «الدرس» فيأمر بإنزاله على الأرض، فيمكث الطفل جالساً يتلوّى لا يقوى على الوقوف ولا على المشي يضع لوحته في حجره ويتظاهر بالحفظ.

لم يكن الأطفال المشاغبون يستسلمون لعصا الفقيه هكذا بدون رد الفعل، بل كانوا كثيراً ما «ينتقمون» بوضع أشياء حادة موخزة أو مزعجة بين تلابيب صوف «هيضورة» الفقيه: تارة شوكاً وتارة مسماراً وأحياناً عقرباً... أما إذا أراد أحدهم أن يرى الفقيه وقد جن جنونه فإنه يطلق «مواء» كمواء القط عندما يكون الفقيه منهمكاً في تصحيح لوحة أو منساقاً مع غفوة نوم. إنه التحدي الذي يجعل الفقيه يفقد عقله، إذ لا يتبين في الغالب صاحب «المواء» ولا يجرؤ أو يقبل أحد من الأطفال الكشف عن اسمه، وهكذا يأخذ الفقيه بالضرب بعصاه، يميناً وشمالاً فتتمايل الصفوف وتتزاحم الأرجل والأجساد ويكثر الصياح...

وإذا كان هناك حد أدنى من «الصغر» في العمر إذ لا يلتحق الطفل بالمسيد، في الأعم الأغلب، إلا بين السادسة والسابعة، فإنه لم يكن هناك حد لـ «الكبر»، إذ كثيراً ما يحدث أن يقضي الإنسان طفولته وشبابه وجزءاً من كهولته في المسيد، «يقرأ»، ويعيد ما «قرأ» ويحفظ ويعيد ما حفظ، سواء تعلق الأمر بالقرآن أو بالمتون والمنظومات. وهو أثناء ذلك يشتغل في بستانه ويقوم بشؤون أولاده... لم تكن هناك مرحلة أعلى من المسيد، وحتى الدروس التي تلقى في المسجد، سواء طوال السنة أو خلال المناسبات الدينية، فهي دروس مفتوحة للجميع، للصغار والكبار، للذين «يقرأون»، كما للذين يسمعون فقط. وعلى كل حال فالمسيد هو، أصلاً، للصغار، فإذا صار الشاب يقرأ في المصحف ويحفظ بعض المتون وبقي مع ذلك في

أو ينوون فتح مسيد يشرفون عليه، وقد يكون من «الطلبة» الوافدين من خارج البلد والذين ترتب لهم بعض العائلات تقديم وجبات الأكل يومياً بالتناوب، ومن هنا اسم أمثال هؤلاء: «أنرتوب» (المرتب له).

لا يتذكر صاحبنا بالضبط كم كان عمره يوم دخل المسيد أول مرة، ولكنه يتذكر جيداً أنه انتقل من مسيد المسجد الجامع المجاور لمنزل أخواله والذي التحق به أول مرة، كما قلنا، إلى مسيد آخر يقع في الجانب الآخر من القصر ـ قصر زناكة. كان هذا المسيد بجانب مسجد عادي، وكان صاحبه شيخاً مسناً، ينوب عنه ولده، الرجل الفقيه الذي تزوج والدة صاحبنا. وإذن سيكون صاحبنا قد التحق بهذا المسيد الثاني بعد السابعة من عمره مباشرة ـ باعتبار أن أمه وأهلها كانوا قد آلوا على أنفسهم ألا تتزوج حتى يبلغ «محمد» سبع سنوات، كما ذكرنا. ولم يمر وقت قصير حتى توفي الشيخ صاحب المسيد فخلفه ولده وأصبح صاحبنا يدرس على زوج أمه.. ولكن لمدة قصيرة فقط.

ـ ٢ ـ

إن ذكريات صاحبنا عن هذه المرحلة من عمره جد مشوشة ومضطربة. إنه لا يتذكر بوضوح كيف زفت أمه إلى زوجها الجديد، ولا كيف كان شعوره إزاءها بعد ذلك. كل ما يتذكره في هذا الصدد أمران: أولهما أن والدة الزوج الفقيه لم تكن راضية عن هذا الزواج، مع أنه لم يتزوج إلا في سن متأخرة ـ بل لربما بسبب من ذلك ـ وأنها كانت تعامل زوجته «الوازنة» ـ أم صاحبنا ـ معاملة سيئة جداً، على الرغم من أنها كانت مثلها من أولاد الحاج. كانت هذه الحماة تعمل بكل ما أوتيت من قوة ونفوذ على أن يطلق ابنها هذه المرأة التي جاءت لتأخذه منها، أو على الأقل تزاحمها عليه. ولكن «الوازنة» كانت امرأة هادئة مسالمة. كانت تتحمل استفزازات وإهانات هذه الحماة بصمت وصبر لأن زوجها كان يحبها ولا يريد فراقها ولأنه أيضاً كان فقيهاً مستقيم السلوك حسن السمعة يبعث على الثقة والاطمئنان. إنه لم يكن يريد أو يستطيع الصدام مع أمه خوفاً من فقدان «رضا الوالدين»، فكان في موقف حرج: يُعد أمه بأنه سيلبي طلبها ويماطل في ذلك بكل ما أوتيه من قوة وصبر، وفي الوقت نفسه يطمئن زوجته، بأنه لن يطلقها أبداً، وأنه سينتهي به الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى تغيير وجهة نظر أمه.

ومرت سنوات طوال قاست فيها أم صاحبنا الأمرين من حماتها. أما هو فلم يكن يزورها في بيت زوجها إلا نادراً، وغالباً ما يتم ذلك خلسة وفي غيبة تلك الحماة القاسية. لقد كانت أخبار معاناة أمه من حماتها معروفة لدى أفراد العائلة والأقارب، وكان صاحبنا يسمع تفاصيل ما تعانيه، من عماته أو من جدته لأبيه التي كانت تتأسف بغضب لما يحدث لـ «الوازنة» التي كانت تقول عنها دائماً إنها من خيرة النساء، وكثيراً ما أنحت باللائمة على أمها ـ أم الوازنة ـ التي تعتبرها هي السبب فيما نشب من خصومة بينهما أدت إلى طلاق هذه الأخيرة. ومع أن هذه الجدة كانت تجتهد في إفهام حفيدها، صاحبنا، أنها غير مسؤولة عما حدث، فإن الانطباع الذي لم يفارقه قط أيام طفولته هو أن جدته لأمه بريئة مما تنسبه إليها جدته لأبيه. لقد استقر في نفسه، من خلال ما كان يسمعه من زوجات أبيه وأعمامه ومن نساء الحي عموماً، أن والدة الأم لا تملك عادة القدرة على تطليق ابنتها على زوجها، فضلاً عن أنه ليس من مصلحتها ذلك: إن طلاق البنت هو في جميع الأحوال عبء على والدتها، إن لم يكن إهانة لها. لقد تأكد صاحبنا من هذا من خلال موقف جدته لأمه إزاء ما كانت تعانيه ابنتها من تلك الحماة القاسية. لقد كانت توصيها بالصبر، وكانت تتجنب الدخول في أية علاقة مع تلك الحماة. وإن صاحبنا ليذكر بوضوح كيف أنها كانت توصيه بعدم الذهاب إلى منزل زوج أمه، وإن فعل ذلك فليكن خلسة، وليدخل غرفة أمه مباشرة ولا يخرج منها إلا وهو يغادر المنزل. وعندما يتذكر صاحبنا اليوم أن باب غرفة أمه كانت بجوار باب المنزل بحيث يمكن أن يدخلها دون أن تشعر به تلك الحماة، يتساءل: هل كان اختيار زوج أمه لتلك الغرفة النائية، بدل الغرف العديدة التي كان يتألف منها منزله، هل كان ذلك مجرد مصادفة أم أنه اختيار مقصود، هدف من ورائه تمكين الطفل من زيارة أمه دون أن تشعر تلك الحماة؟

أما الأمر الثاني الذي يتذكره صاحبنا عن هذه المرحلة من طفولته فهو أنه انتقل للسكنى في دار أبيه، وأن ذلك تم بمحض إرادته. وهكذا فبدلاً من أن يأتي إلى دار أبيه زائراً لفترة من الوقت، ساعات من نهار أو يوماً أو يومين، كما كان يفعل من قبل، تطورت الأمور فصار اليوم أو اليومان أياماً لينتهي به الأمر إلى الإقامة رسمياً في بيت أبيه. وهكذا صار يزور بيت أخواله لساعة من نهار أو ليوم أو يومين يرافقه بل يطلبه ويلح في طلبه جده لأمه الذي رباه ماسكاً به إلى جانبه منذ أن ولد إلى أن اختار استبدال بيت أخواله ببيت أهله من أبيه في الثامنة من عمره. ويبدو أن هذا

الجد المثالي قد قرر عدم الإلحاح عليه في المكوث عنده إذ كان على علم بما تقاسيه ابنته من حماتها وبتعذر زيارة ابنها لها بكل حرية، إضافة إلى أن أحواله الصحية ـ أعني الجد ـ كانت قد أخذت في التدهور.

ـ ٣ ـ

لم يطل تردد صاحبنا على مسيد زوج والدته فلم يكن يميل إلى هذا الرجل، لا لأنه قد أخذ منه أمه، فلقد أصبح الآن، بحكم تقدمه في العمر، يدرك أن الأم التي لا تعيش مع والد أبنائها لا بد أن تتزوج برجل آخر، كما كان واضحاً أمام عينيه من خلال وضعية أمهات كثير من أقرانه وأصدقائه، بل إنه لم يكن يرتاح إلى ذلك الزوج الصامت المحافظ الذي لا يعرف كيف يداعب الأطفال ولا كيف يحمي زوجته من تلك العجوز القاسية. لذلك عاد صاحبنا إلى المسيد المجاور لبيت أخواله الذي التحق به أول مرة. والغالب أنه لم يمكث فيه إلا مدة قصيرة، فلقد أدخله عمه من أبيه إلى «ليكول»: المدرسة الفرنسية بالبلد.

كانت هذه المدرسة موزعة إلى ثلاثة مستويات: المستوى الابتدائي الأول في حي «إذاريت» والمستوى الابتدائي الثاني في حي «عبد الكافي» وكلاهما بقصر زناكة. أما مستوى الشهادة الابتدائية والمستوى التكميلي فكانا في الحي الإداري على امتداد قصر «أولاد سليمان». التحق صاحبنا بالمستوى الأول حيث قضى سنتين. كانت المدرسة تتألف من غرفة واحدة طويلة خُصِّص نصفها لتلامذة السنة الأولى الابتدائية ونصفها الآخر لتلامذة السنة الثانية. وكان المعلم من مدينة وجدة، عاصمة الإقليم، لا يعرف الأمازيغية ـ والأطفال لا يعرفون العربية الدارجة، فكان يتحدث إليهم بالفرنسية وحدها، مستعيناً بوسائل الإيضاح. كان يُشغِّل تلامذة السنة الثانية بالتمارين عندما يكون بصدد تعليم تلامذة السنة الأولى، وكان يكلف هؤلاء بعمليات النقل والرسم عندما يكون بصدد تدريس جيرانهم «الكبار».

لم يكن الأطفال يشاغبون كما كان الشأن في المسيد، فالتلاميذ هنا يجلسون فرادى على مقاعد، والمعلم يتعامل معهم كأفراد وليس كـ «جمع» كما في المسيد. وإذا طلب من أحدهم أن يتكلم فإن على الباقي أن يصمت ويستمع. وإذا طلب

منهم أن يكتبوا فعلوا ذلك بسكوت، سواء تعلق الأمر بالنقل من السبورة أو بدرس الإملاء. أما إذا كان المعلم بصدد شرح الدرس فإن على التلاميذ جميعاً أن يجمعوا أذرعهم من خلاف على صدورهم أو على الطاولة، وذلك ما تفيده عبارة «كروازي ليبرا» (اجمعوا أذرعكم) التي كانت أول عبارة يتعلمها الطفل في اللغة الفرنسية لكثرة ما كانت تتكرر. إنه «النظام» الذي تفرضه سلطة المعلم ـ التي هي امتداد لسلطة الحاكم الفرنسي ـ «النظام» الذي ينقل معه «النزعة الفردية» من التراث الليبرالي الأوروبي لتحل محل «الحضور الجمعي» الذي يتميز به المسيد. ولم يكن هذا «النظام» يستغني عن العقاب الجسدي. فالأطفال هم من «أبناء الأهالي» (ليزانديجان) الذين جاءت الحماية الفرنسية لتنقل إليهم «الحضارة». لقد كان العقاب منظماً و «حضارياً» وفردياً بدوره. لقد حلت المسطرة محل عصيّ الفقيه، وهي لا ترفع للتهديد فقط ولا كانت تنزل على الطفل أينما اتفق حين يفقد المعلم أعصابه ـ وهو لا يفقدها لأن «النظام» يكفيه شر ذلك.

كان العقاب يتم بهدوء وبدون صخب. فإذا اقتضى نظر المعلم إنزال عقاب بدني على أحد التلاميذ لسبب من الأسباب فإنه يأمره، بهدوء، أن يقدم راحة يده، أو يديه كلتيهما، راضياً صامتاً، لتنزل عليهما المسطرة بضرباتها المتوالية... وإذا تبين أن الضربات على راحة اليد لا تكفي ارتفع العقاب «المنظم» درجة أخرى: يجمع الطفل أصابعه لتنزل المسطرة على رؤوسها وعلى الأظافر كذلك. وإذا أحس المعلم بالتعب من جراء الضرب طلب من التلميذ فتح أصابعه ليدخل مسطرته بين اثنين منها ثم يمسكهما بإحدى يديه مسكاً قوياً بينما يدير بالأخرى المسطرة بقوة، لتفعل زواياها الحادة فعلها، والألم حينئذ أشد وأقسى. وأفظع منه أن على الطفل المعاقب أن يتحمل ويسكت. على أنه قد يقتصر العقاب على إصدار الأمر للطفل بالوقوف ملاصقاً جسمه ووجهه مع الجدار رافعاً يديه فوق رأسه. وقد يؤمر بالخروج من الفصل والوقوف بجانب الباب. إن الإقصاء والنفي اللذين يمارسان على الطفل هما كذلك. وغير خاف أن هذه الأنواع من العقاب ما زالت حاضرة في مدارسنا كجزء من الأساليب «الحديثة» التي ورثناها عن «الحماية» الفرنسية واحتفظنا بها... ومع أن صاحبنا لم يتعرض قط لأي عقاب في هذه المدرسة فإن مشاهد من هذه العقوبات «الحديثة» ما زالت حاضرة في ذاكرته، وسيكون غير مخلص مع نفسه إذا هو لم يعترف الآن أنه مارسها أحياناً على تلامذته يوم كان معلماً في أوائل شبابه.

استعادة شيء عن إحساسه إزاءها ولا عن شعوره بالفرق بينها وبين المسيد سوى ما ذكرنا بصدد العقاب. كل ما يتذكره بوضوح، مما يهمه شخصياً، أنه كان من نجباء الفصل، هو وابن خال أبيه الذي كان قد التحق بالمدرسة نفسها قبله بأسابيع، وأنهما كانا من المتفوقين، وأن صاحبنا كان مبرزاً في مادة الحساب وأنه لم يكن في حاجة إلى استعمال الخُشَيْبات ـ «ليبوشيت» ـ من أجل القيام بالعمليات الحسابية من جمع وطرح... وأن المعلم كان يكلفه، خصوصاً في السنة الثانية، بحراسة التلاميذ أو بتحفيظهم ما في السبورة من حروف وأرقام. ويتذكر صاحبنا كيف أنه كان يجيد القراءة في كتاب التلاوة الفرنسية الذي كان معروفاً باسم مؤلفه «ليوني»، ولكنه لا يتذكر من نصوصه سوى عنوانين، أحدهما «بلادنا فرنسا»، والثاني «أجدادنا الغاليون»!

كان الانتساب إلى المدرسة الفرنسية ينطوي في نظر أهل البلد على نوع من «الخروج عن الطريق»، على نوع من «العقوق» بالدين والوطن. فكان الآباء يخفون أبناءهم ولا يسمحون بتسجيلهم في هذه المدارس إلا تحت ضغط السلطات الفرنسية وأعوانها، وكان أصحاب «الجماعة» واقعين تحت نفوذ الحاكم الفرنسي، فكانوا يزودون هذه المدارس بالتلاميذ، وفي الغالب كانوا يأخذونهم من العائلات الفقيرة الضعيفة... على أنه إلى جانب هؤلاء أطفال كان آباؤهم وأولياؤهم ممن «انفتحوا» على الحياة العصرية التي كانت الحماية الفرنسية تغرس بعض مظاهرها في البلد، فكانوا يأملون أن يصبح أبناؤهم موظفين في الإدارة (معلمين أو سعاة بريد... وكان ذلك منتهى طموحهم في ذلك الوقت).

كان من هؤلاء «العصريين» عم صاحبنا، عمه الأكبر، وهو الذي أدخله المدرسة الفرنسية. ولا يعلم هل تم ذلك باستشارة أبيه، الذي كان مسافراً للتجارة، أم أن العم اتخذ المبادرة من نفسه. ومهما يكن فإن صاحبنا لم ينس قط تلك الصفعة الخفيفة والرمزية التي تلقاها من عمه على قفاه ذات صباح، وهو يقوده من دار أهله لأمه إلى المدرسة بعد أن تغيب عنها يوماً، ربما لأن أهله أثروا فيه وأقنعوه بترك مدرسة «النصارى» (= الأوروبيين) والرجوع إلى «الجامع» (= المسيد).

لم ينس صاحبنا تلك الصفعة على خفتها، لأنه لم يسبق له قط أن صفعه أحد، لا من جهة أبيه ولا من جهة أمه. كانت الصفعة الأولى، ولكنها لم تكن الأخيرة،

فلقد كانت هناك صفعة ثانية، أشد وأقوى، كانت الأخيرة فعلاً، وكان قد تلقاها من خاله المعروف بيديه الشديدتين وعضلاته القوية وبنيته المتينة. أما السبب فهو أن خاله هذا كان قد سخره للإتيان له ببعض السجائر. خرج صاحبنا للقيام بالسخرة، ولكنه ما إن غادر باب المنزل حتى اجتذبه جمع من أصدقائه الأطفال يجلسون القرفصاء، على شكل حلقة مستديرة يحيطون بكومة من الأحجار الصغيرة يلعبون لعبة «أخباض» (= من خبط الحجر بعضه ببعض). إنها لعبة كانت تستهوي الأطفال يجلسون ساعات وهم يتبارون... مثلما كان يجلس الشباب والكبار حول مربعات لعبة «الشيت» التي يرسمونها على الأرض بالتراب يحركون عليها قطع الطوب كما في لعبة «الضامة» والشطرنج.

استغرق صاحبنا إذن مع أصدقائه أطفال الحي في لعبة «أخباض» ونسي سخرة خاله، بل نسي نفسه تماماً... ولم يستيقظ من استغراقه في هذا النسيان، الذي يحقق به الطفل ذاته أحياناً، إلا على وقع صفعة على قفاه. كانت الصفعة قوية ومفاجئة إلى درجة أحس معها أن مثانته قد أخذت تفرغ ما فيها دون سابق إنذار. ومر وقت لا يستطيع تقدير مدته، فهو لم يشعر إلا ويد تخطفه خطفاً وترفعه إلى أعلى لتعيده إلى الأرض واقفاً على رجليه. على أن الخال سرعان ما عاد إليه رشده فأمسك صاحبنا برفق من يده وقاده بهدوء إلى المنزل، ناصحاً ومعاتباً بأسلوب ينم عن اعتذار واسترضاء، حتى إذا دخلا الدار همس في أذنه قائلاً: عد لتلعب مع أصحابك «أخباض» أو لتتفرج في «الشيت». ولكن ارجع مبكراً قبل غروب الشمس.

ـ ٤ ـ

عندما عاد صاحبنا إلى المنزل، بعد فرجة طويلة في لعبة «الشيت»، كانت آثار الخوف والرهبة، من جراء تلك الصفعة، قد تركت مكانها للارتياح والطمأنينة، فجلس بجانب خاله الذي كان مشغولاً، وسط صحن الدار، في ترقيع بردعة حماره الأسود العنيد. قال له خاله وهو منهمك فيما هو فيه: سنذهب غداً إلى «إغزر» (= الوادي: وادي زوزفانة) للاحتطاب وجني بواكير التمر. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها صاحبنا إلى «الشغل»، فلقد سبق له أن رافق جده مراراً إلى البستان يساعده في سقي الزرع أو في جمع الحطب. أما «الحمار» فقد كان يتولى الذهاب به إلى الساقية للورد كل يوم في وقت العصر، وغالباً ما يكون ذلك في شبه مباراة مع غيره من أطفال الحي الذين كانوا يقومون بنفس المهمة. كان حماراً أسود

قوي البنية سريع المشي صعب المراس، لا يقترب منه غريب إلا ركله. ولكنه كان منقاداً انقياداً تاماً لصاحبه خال صاحبنا. كان الحمار شديد الخوف من هذا الرجل الذي روضه ترويضاً بالقوة. وما زال صاحبنا يتذكر كيف أن هذا الحمار تجرأ ذات يوم على ركل خاله، فما كان من هذا الأخير إلا أن تعرض للركلة بيده اليمنى، فأمسك الحمار من رجله ولواها بقوة، فلم يتمالك الحمار رغم ضخامة جثته من الوقوع على الأرض. كان للحمار لجام من الجلد، وكان صاحبنا يمسك به عندما يقوده، راكباً أو ماشياً. أما في حالة السباق مع أقرانه فكان يرخي اللجام إرخاء، وأحياناً يلقي به في عنق الحمار لينتصب على ظهره ملوحاً بيديه زاهياً مفتخراً بوجوده في مقدمة المتسابقين.

والحق أن هذا السباق اليومي ـ تقريباً ـ الذي كان يجري بعد العصر كان متعة للأطفال وموضوع حديثهم في النهار. ولكنه ـ أعني سباق الحمير في أوقات الورد ـ كان ضرورياً للحمار نفسه، إذ إنه «الرياضة» الوحيدة التي كان يمارسها يومياً. ذلك أنه قد تأتي عليه أيام وأيام يظل خلالها رابضاً في إسطبله ليل نهار واقفاً أوجائماً على الأرض، فكان هو الآخر ينتظر وقت الورد بفارغ الصبر متشوقاً لـ «الزعرطة» (= الجري مع الركل) والسباق.

ذهب صاحبنا ذلك اليوم، أيضاً، بالحمار للورد، ولكنه حرص على العودة سريعاً، فالحمار في حاجة إلى الراحة، ولا بد له من «وجبة عشاء» غنية، لا بد من إضافة شيء من الشعير إلى الوجبة المعتادة من التبن. كان اسطبل الحمار في زاوية على اليمين داخل الدار قريباً من قبو مملوء تبناً، منه تقدم له وجباته: نحو كيلوغرام صباحاً ومثله مساء. أما الشعير فيؤخذ من مخزون العائلة في غرفة المؤونة التي كانت تشتمل في زاوية منها على حوض مملوء شعيراً تتخلله قطع من الملح الحجري لحفظه من الفساد. وإلى جانبه حوض من القمح مع قطع من الملح كذلك. يملأ الحوضان في الصيف بما جاد به البستان أو «المعذر» (السهل الذي ينتهي إليه الوادي بالماء والطمي الذي يأتي به من التلال والأراضي المجاورة). كانت قطع الملح لحفظ الزرع من الفساد ـ كما قلنا ـ ولكن أيضاً لطرد الجن حتى لا يسرقوا منها، فلقد كانوا شركاء البشر في كل شيء كما ذكرنا. أما في أقصى عمق الغرفة فتصطف خوابي التمر المليَّد، الذي يدك فيها بالأرجل دكاً مع نهاية الخريف، بعد جنيه وتجفيفه في سطح المنزل على حرارة الشمس. وفوق الخوابي أعمدة تمتد من الجدار إلى الجدار علق عليها عدد من عراجين التمر الممتاز، يحتفظ به كما هو ليقدم في المناسبات.

لم يكن صاحبنا في حاجة إلى مصباح ـ مع أن الغرفة كانت مظلمة ليلاً ونهاراً ـ لأنه كان يعرف طريقه ويعرف بالضبط، مثله مثل جميع أفراد العائلة، أين يجد حاجته. اتجه مباشرة إلى حوض الشعير وملأ وعاء يسع نحو مدين ثم ذهب به إلى مذود الحمار الذي ما إن رأى الوعاء حتى أخذ ينهق فرحاً، مادّاً ذيله إلى وراء، رافعاً رأسه إلى أعلى، فاتحاً شفتيه، واصلاً أسنانه العليا بالسفلى. لقد كانت تلك طريقته في التعبير عن الرضا والفرح، فالحمار يضحك بأسنانه... وضع صاحبنا وعاء الشعير بعيداً على الأرض ثم أتى بوجبة التبن ووضعها في المذود، ثم وضع الشعير وسط التبن وترك الحمار يأكل وانصرف.

في اليوم التالي استيقظ صاحبنا قبيل الفجر على إيقاع حركات خاله الذي كان قد استيقظ قبله وأخذ في تسريج الحمار وتثبيت مزود «العوين» (الزاد) عليه: شيء من التمر الملبد والأقط (الجبن اليابس).. ثم خرجا راكبين على الحمار، الخال في الأمام وابن أخته وراءه. اتجها شرقاً عبر «بغداد» قريباً من مدينة الأطفال، «الرباط» التي تحدثنا عنها قبل. وعندما بدأ قرص شمس الصباح يطل عليهما من ثنية جبل «سيدي يوسف»، الذي يشق وادي زوزفانة مجراه على سفحه، كانا قد وصلا الكثبان الرملية التي تنحدر نحو الوادي. كانت على سفوح هذه الكثبان آثار الزواحف والحشرات والذئاب. نزل صاحبنا وخاله من على ظهر الحمار وأخذا يمشيان وراءه بين الكثبان الرملية تخفيفاً عليه: فالمشي على الرمل الكثيف المتموج ليس كالمشي على الأرض الصلبة المسطحة، وركوب الدابة وهي تمشي على الكثبان الرملية يعتبر عملاً لاأخلاقياً. ومع منحدر الكثبان نحو الوادي تمتد صفوف النخيل تتزاحم في غير نظام. وكان صاحبنا ينحني بين الفينة والفينة ليلتقط التمر فيأكله بعد أن يمسحه بيده من الرمل. إن تمر الصباح هو ألذ تمر، فعلاوة على حلاوته فإن برودة الصباح تضفي عليه نكهة خاصة. أما إذا كان التمر ما يزال على العرجون يستكمل النضج فإن طعمه يكون ألذ طعماً: حلو كالعسل مع مذاق البلح.

لم تكن حقول النخيل مفصولة عن بعضها بل كانت متداخلة. ومع ذلك فأهل فجيج يعرفون نخلهم، واحدة واحدة، سواء كانت مجتمعة في بقعة من الأرض أو متناثرة بين النخيل والكثبان أو على ضفاف الوادي، فالأرض مشاعة ولا يملك المرء إلا ما غرس. لم يكن أحد يقترب من نخيل الآخرين إلا ليصلح ما أفسدته الرياح، لا يأخذ منها تمراً ولا جريداً... على أنه من الجائز للمارة التقاط التمر من أسفل النخل أياً كان مالكه، ولكن للأكل فقط، هناك في عين المكان. إن ما يأكله الإنسان

مُدّ، وجاء به إلى منزله عُدّ ذلك سلوكاً مشيناً يحط من قيمة صاحبه. على أنه إذا كان المعني بالأمر رجلاً فقيراً معروفاً بكونه لا يملك نخيلاً فإنه لا لوم عليه إن هو جمع من الأرض ما به يقتات في منزله مع أولاده ليوم أو يومين. لم تكن هناك حاجة إلى الحراس، ولا كان هناك قانون مكتوب، وإنما هو وازع داخلي قوامه «أخلاقيات» وقواعد للسلوك مستضمرة بصورة جماعية وبفعل الخبرة اليومية.

كان أول شيء فعله صاحبنا عندما وصل هو وخاله والحمار إلى نخيل «أولاد الحاج»، هو ربط الحمار على نخلة بينما تولى خاله نزع البردعة عنه ووضعها هي والزاد بعيداً، مخافة أن يمد إليها الحمار عنقه فيأكل الزاد ويقطع البردعة ليأكل التبن الذي يملأ فجواتها. وفوراً بدأ العمل: الخال يقطع اليابس من جريد النخل ويلقيه على الأرض وصاحبنا يجمعه وأطراف الخشب في أكوام صغيرة. كان تسلق النخلة أمراً عادياً مألوفاً يتقنه الكبير والصغير في بلدة فجيج، فكان صاحبنا يتسلق النخلات النحيفة الطويلة الجذع، التي لا تحتمل ثقل جسم خاله، ليجني تمرها، بينما كان هذا الأخير يتولى النخلات الأخرى... بعد ذلك نزلا إلى الوادي يجمعان ما ألقى به من الحطب، حتى إذا جمعا ما يكفي رجعا ليكملا التقاط التمر من العراجين المدلاة ووضعها في أكياس خاصة.. لم تكن العملية سهلة فعراجين التمر محمية بشوك الجريد، الطويل الحاد، مما كان يستوجب التعامل معه بمهارة حتى لا تخرج اليد مضرجة بالدماء.

ـ ٥ ـ

عندما انتهى الخال من تفقد النخيل وجمع ما يكفي من الحطب، بل ما يقدر الحمار على حمله، اجتاز مع ابن أخته الوادي إلى الضفة الأخرى، لقد كان ارتفاع الماء لا يتجاوز القدم إلا بقليل. ثم اتجها عبر شعاب سفح الجبل حيث تكثر أشجار السدر التي يجنى منه النبق. ولم يبخل الخال على ابن أخته بالوقوف والسماح له بجمع ما قدر على جمعه من هذه «الفاكهة» الصحراوية التي دونها ـ دوماً ـ شوك القتاد. ثم تابعا طريقهما عبر منعرجات سفح الجبل إلى ضريح الولي الصالح «سيدي يوسف بن علي» المشيد بين الصخور، في هذه الناحية من الوادي المعروفة بـ «تمزوغت» (الأذن).

إن زيارة هذا الضريح البعيد من المدينة يعد من المناسبات التي لا تتاح إلا نادراً، ويقال إن «بركة» دفينة تنفع الأطفال إذ تبعد عنهم كل شر. أما ضريح «للاشافية»، المقام في الجانب الآخر من الجبل إلى الغرب، فيقال إن زيارته تشفي النساء العواقر. ويكفي أن تصعد إليه المرأة، عبر مسالك وعرة، وتقدم واجب الزيارة من تمر أو خبز ثم تعقد عقدة على سعف نخلة صغيرة هناك، يكفي ذلك لتنفتح أمامها أبواب الأمل في الإنجاب. وما زال صاحبنا يذكر أنه زار هذا الضريح مراراً محمولاً على ظهر عمته التي كانت ترافق امرأة عاقراً كانت تتردد على هذا الضريح بدون إذن زوجها. إن صاحبنا يذكر ذلك جيداً لأن المرأة والعمة معاً كانتا تحرصان على تلقينه ما يقول للزوج إذا هو سأله أين ذهبت زوجته.

والواقع أن الأضرحة في مدينة فجيج كثيرة ومتنوعة الاختصاصات: فاختصاص ضريح «سيدي منصور» غير اختصاص ضريح «سيدي الحاج محمد أوفضل»، غير اختصاص ضريح «سيدي بايزيد»، أو ضريح «سيدي الطيفور» الخ... كان بعض الأضرحة قبوراً لعلماء من فجيج مثل ضريح سيدي عبد الجبار في قصر المعيز، بينما كان كثير منها مجرد «مقام» لمتصوفة مشهورين اتخذ الناس منهم أولياء بعد مماتهم. والغالب على الظن أن ضريح «سيدي منصور» هو مقام للمتصوف الشهير ابن منصور الحلاج، وأن ضريح «سيدي بايزيد» هو مقام لأبي يزيد البسطامي، كما أن ضريح «سيدي الطيفور» قد يكون بدوره مقاماً لـ «طيفور»، المتصوف المعروف. ومهما يكن فقد كانت هذه الأضرحة بمثابة «مستشفيات» ترتادها النساء لطلب الشفاء لهن أو لأبنائهن، وكثيراً ما يتطلب الاستشفاء المرابطة في الضريح عدة أيام. ومن هنا اسم الضريح بالأمازيغية (أمرابط)، ويطلق أيضاً على دفينه. على أن المرابطة في الضريح لعدة أيام لم تكن هي القاعدة. لقد كانت الزيارة من حين لآخر، وتقديم الشمع و «الفتوح» (تمر أو خبز في الغالب) لمن يقوم على خدمة الضريح وخدمة زواره، تكفي...

أما ضريح «سيدي يوسف» الذي زاره صاحبنا مع خاله عند الانتهاء من أشغالهما في الوادي فلم يكن فيه محافظ ولا محافظة. لقد كان بعيداً ونادراً ما يرتاده الناس. كان الضريح عبارة عن قبة في داخلها قبر، أو على الأصح أحجار منصوبة في هيئة قبر. وعلى أحد الجدران كوة يعلوها سواد دخان باهت مما يدل على أن الشمع لم يوقد في هذا الضريح منذ مدة. ولم يكن الخال قد اصطحب معه شمعاً، ولذلك اكتفى بوضع مُدّ من تمر استخرجه من مزود كان على كتفه، في حفرة كانت

كان الخال يتمتم بأدعية لم يكن صاحبنا يتبين ألفاظها بَلْهَ معناها، ولكنه أدرك أن عليه أن يقلد خاله فيرفع كفيه بالدعاء هو الآخر، حتى إذا جاء وقت قراءة الفاتحة قرأها معه، ثم سلم.

عاد الخال وابن أخته إلى المكان الذي كان حمارهما ينتظرهما فيه مشدوداً بحبل إلى نخلة. وبعد أن فَكّا وثاقه نزلا به إلى الوادي ليشرب ثم عادا به إلى المكان الذي حطا فيه رحالهما، وأخذا يجمعان الحطب وجريد النخل اليابس ويرتبانهما في حزمتين ربطاهما بحبل ثم ألقيا بهما على ظهر الحمار، ثم ملآ ما بينهما فوق العمود الفقري للدابة بما كان معهما من متاع وأكياس، ثم قفلا راجعين يمشيان خلف الدابة.

ـ ٦ ـ

كانت الشمس تميل نحو الغروب عندما التقيا في مدخل المدينة عند ملتقى طريقهم مع طريق «تاغيت» (حقل النخيل المجاور للمدينة) بتلك الشخصية التي كان يعرفها الخاص والعام في البلد: «ناسا» (وهو تحريف بالأمازيغية لاسم عبد الناصر)، كان يتحدث إلى نفسه، بل إلى الناس كافة، كعادته. كانت عصاه في يده، يلوح بها ذات اليمين وذات الشمال. لقد كان هو الآخر في طريق عودته من ضريح «سيدي فضل» بـ «تاغيت». كان هذا الرجل من تلك «الشخصيات» المعروفة في البلد بكونها على شيء من «الحمق». وكان لكل واحد من هذه الشخصيات أسلوبه الخاص في التعبير عن هذا «الحمق» الذي يوصف به. أما «ناسا» فكان يتميز بانتقاله بين داره في المدينة وبين ضريح «سيدي فضل» صباح مساء. ويعتقد الناس ـ أو على الأقل هذا ما كان يعتقده الأطفال في سن صاحبنا ـ أن «ناسا» يقطع المسافة بين المدينة والضريح في «لمح البصر»، بينما يتطلب ذلك من الرجل العادي نحو ساعة من الزمن. هناك في هذا الضريح الذي كان هذا الرجل يحتكره احتكاراً ـ ربما لأن نزيله من جدوده ـ كان يقضي نهاره يشرب الشاي ويدخن سجائر كان يلفها في أوراقها بنفسه. ولم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب منه هناك ولا كان الأطفال يجرؤون على الدخول إلى الضريح للإطلاع على ما فيه إلا نادراً وبعد أن يكونوا قد تأكدوا من غيابه. ومع ذلك فقد كانوا يخافون منه في غيبته أكثر من خوفهم منه في حضرته.

فعلاً كانوا يتحلقون حوله عندما يقف قبيل الغروب يلقي خطبته اليومية في

«تاشرافت» (= ساحة البلدة). كان يخطب في الناس بالعربية الدارجة، وقليلاً ما كان يتكلم الأمازيغية مع أنها لغته الأم. لم يكن الأطفال يفهمون شيئاً ذا بال من خطبه فقد كانوا لا يعرفون إلا الأمازيغية. ولم يكن «ناسا» يخيف الأطفال دائماً بل يحدث أحياناً أن يعاملهم بلطف وابتسامة، وهو لا يتحول إلى رجل غاضب مخيف حقاً، إلا حينما يكون بدون سجائر أو بدون سكر وشاي، وإذا زوده الأطفال بهما أو بأحدهما تبدد الغضب من وجهه وعاد يبتسم...

وإذ يستعيد صاحبنا اليوم في ذاكرته «ناسا» يجد نفسه ميالاً إلى تفسير «الحمق» الذي كان ينسب له بكونه كان تعبيراً عن الرفض، رفض المجتمع وقيوده وغياب العدل فيه. ذلك ما كانت تشي به «الخطب» التي كان يلقيها هذا الرجل على «الناس» الغائبين الذين لا يريدون، بل لا يستطيعون، سماع الكلام الحر الطليق الذي يتفوه به هذا الذي كان يوصف بأنه على شيء من «الجنون».

وعلى العكس من «ناسا» كانت الشخصيات الأخرى ـ المعروفة في البلد بشيء من «الحمق» أو ما يشبهه ـ أقل شعبية لدى الأطفال. أما «كاسو» (تحريف أبو القاسم) فقد كان بهلولاً يجري في الأزقة باكياً أو «يتكلم» كلام من يبكي. لم يكن يحسن الحديث إلى الناس ولا التعبير عما يريد ولا عما يشكو. لقد كان «مخطوفاً» ـ مجذوباً ـ في عقله ولسانه. ولكنه كان طيباً جداً يساعد كل من يدعوه لمساعدته أو من يبدو له أنه في حاجة إليها. ومع أن منظره لم يكن رائقاً، إذ كان لعابه وأنفه دائمي السيلان، فلقد كان الجميع ينظرون إليه بعين الشفقة، باستثناء الأطفال الذين كانوا يستفزونه ليجري وراءهم وهو يصيح بكلام غير مبين ولا مفهوم. وعندما مات اتخذت النساء قبره مزاراً ومن تراب قبره دواء لمعالجة اللوزتين (كان أهل البلد يداوون تعفن اللوزتين بإحاطة مكانهما من العنق بجبيرة من الطين الأحمر يتركونه يجف فيتقلص حجمه ويضغط على اللوزتين المنتفختين وقد يصادف أن يشفى المريض، فينسب ذلك إلى بركة صاحب الضريح، أو القبر، الذي أخذ منه التراب). لقد حظي «كاسو» باحترام زائد بعد مماته، بينما كان مزعجاً أثناء حياته. لقد تذكر الناس عندما مات أنه لم يكذب طول حياته ولم يسرق ولم يغش ولم ينافق ولم يغتب أحداً قط. ومع أنه لم يكن يؤدي الصلوات الخمس فإن سلوكه البريء براءة الأطفال قد وضعه بعد وفاته في مرتبة الأولياء الصالحين. إن «الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وهذا الرجل لم يعرف طول حياته ما الفحشاء وما المنكر، فكانت حياته كلها صلاة، أو قل إنها كانت تجسيداً للخلق الذي من أجله كانت الصلاة.

قد قضى فترة في فرنسا، وعندما عاد أخذ يتصرف تصرفاً «يعلو» على تصرف «العقلاء» العاديين من الناس. لم يكن كثير الكلام، ولكنه كان إذا مر من أحد المجامع وسأله بعضهم سؤالاً أجاب بجملة أو جملتين بليغتين لفظاً ومعنى. كان ينطق بـ «الحكمة»، وكان «أحمق» لأنه كان ذا عبقرية فوق المعتاد. كان من أولئك الذين يقول عنهم المثل: «خذ الحكمة من أفواه الحمقى». سئل الشيخ حمان ذات يوم: «كيف حال الدنيا؟» فسكت لحظة وأجاب: «إنها ملثمة، فلا ندري أهي رجل أم امرأة!» لم يكن الشيخ حمان موضوع اهتمام الأطفال إذ لم يكن «حمقه» في مستواهم. لقد كان رجلاً عادياً في تصرفاته، وكل ما كان يضعه في زمرة «الحمقى» أنه كان لا يتكلم إلا رمزاً ولا ينطق إلا بحكمة. لقد كان «عاقلاً» أكثر من المعتاد، ولذلك كان الناس يصفونه بـ «الحمق».

ولم يكن عالم النساء يخلو من مثل هذه «الشخصيات». فلقد أدرك صاحبنا زمن طفولته المبكرة سيدة عجوزاً كانت تُعرَف باسم «مامًا قُو» (= أمي رقية) كان يُخوَّف بها الأطفال. فإذا لم يأتمر الطفل بأمر أمه، كأن يمتنع عن النوم مثلاً، هُدِّد بالنداء على «ماما قو». ولا يتذكر صاحبنا عن هذه السيدة سوى أنها كانت إذا خرجت من منزلها، عارية الوجه والرأس تجر ثيابها على الأرض، فَرَّ الأطفال من أماكن لَعِبهم في الأزقة وأفرغوا لها الطريق ليطلّوا عليها من ثقوب الأبواب حابسين أنفاسهم. لقد كان منظرها يجسد في ذهن صاحبنا، يوم كان في نحو السادسة من عمره، منظر إحدى الشخصيات الرئيسية في الحكايات التي تحكى للأطفال قبل النوم خاصة، حكاية «أمزا وتامزا» (= الغول والغولة). كانت «ماما قو» تمثل في خيال صاحبنا الصورة البشرية لـ «تامزا». أما زوجها «أمزا» فقد كان يصعب على عقل الطفل تصور شيء يشبهه.

كانت حكايات الأمهات والجدّات تقدم «أمزا» في صورة كائن هائل القوة عظيم الجثة إلى درجة أنه قد يحدث له أن يزيح الجبل برجله من طريقه كما يزيح الطفل بقدمه بعرة بعير. والغالب ما كانت حوادث حكايات «أمزا وتامزا» تجري في الخلاء مع الوحوش الضارية. كان الأطفال يُقبِلون على سماعها باهتمام ورهبة لا مزيد عليهما. كانوا يسرحون بخيالهم مع حوادثها إلى أن يغلب عليهم النوم، وحينئذ «تسكت شهرزاد عن الكلام المباح» لتستأنفه في مساء اليوم التالي... فعلاً كانت حكايات «أمزا وتامزا» أشبه بقصص ألف ليلة وليلة من حيث تسلسلها،

ولكنها، في مضمونها، كانت أقرب إلى «أفلام الرعب»، أفلام البطولة والخيال، التي تشد إليها أطفال اليوم شداً. حقاً لكل زمان وسائله ومناظره. ولا جدال في أن هناك تقدماً هائلاً على هذا المستوى. ومع ذلك تبقى الطبيعة البشرية هي هي: إن أفلام الرعب التي تقدم اليوم للأطفال، وللكبار كذلك، صوراً على الشاشة مصحوبة بالحركة والصخب قد لا تختلف كثيراً عن تلك التي يصنعها الأطفال بخيالهم حين سماعهم الحكايات التي تحكيها لهم جداتهم وأمهاتهم، فيرون الحوادث ويسمعون الأصوات داخل أنفسهم وبين طيات وجدانهم، وبذلك كانوا يلبُّون حاجة بشرية بعينها تتم تلبيتها اليوم بطرق أخرى، ويبقى الإنسان هو هو...

ومن الشخصيات التي كانت تشغل عالم الأطفال، عالمهم اليومي الواقعي هذه المرة، رجل يهودي كانوا يسمونه «بيكا». وكان الأطفال يهتمون به لكثرة تردده إلى قرية بني ونيف على الطرف الآخر من الحدود. كان يغادر البلدة صباحاً ويعود مساء، يمشي على رجليه حاملاً عصا يضعها فوق كتفه فيمسك بأحد طرفيها، أما الطرف الآخر فيعلق عليه، وراء ظهره، قفة صغيرة كان وحده يعرف ما فيها. كان الأطفال يتعرضون له أحياناً عند مدخل المدينة ويضغطون عليه لحمله على الإقرار بما في قفته، ولكنه كان يمانع دائماً. وإذا اشتد عليه ضغط الأطفال صاح يطلب النجدة «بوه.. بوه..» فيهب المارة من الرجال إلى نجدته، وينصرف إلى حال سبيله.

والواقع أن اليهود كانوا يعيشون في فجيج حياة عادية تماماً. كان الذين يقطنون في قصر زناكة منهم يسكنون في حي وسط البلدة، قريباً من المسجد الكبير والساحة المركزية على جانب الحي «التجاري» (تميزرت)، يزاولون التجارة والحدادة والصياغة وصنع الأحذية. وكانت متاجرهم قريبة من منازلهم التي كانت جدرانها تطلى بالجير الأبيض أو الملون على عكس منازل المسلمين التي كانت بدون طلاء إلا ما كان من غرف الضيوف. وكان أطفال اليهود يلعبون مع بقية الأطفال.. لا فرق. وكانوا يتصادقون ويلعبون جميعاً. وما زال صاحبنا يتذكر طفلاً يهودياً كان صديقاً له، كان كثير المعاشرة لأطفال المسلمين: يلعب معهم ويدخل بيوتهم وكان اسمه ـ أو على الأقل هكذا كانوا يدعونه ـ «كوكو».. وكان صاحبنا يتردد على منازل أصدقاء أبيه من اليهود التجار فكانوا يعطونه من أكلاتهم الخاصة، كالرقاق ما يحمله معه إلى منزل أهله. وعلى العموم كان اليهود في فجيج يعيشون في هدوء وطمأنينة أيام طفولة صاحبنا. ولكنهم غادروا بعد ذلك خصوصاً خلال الحرب العربية ـ الإسرائيلية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨.

أثناء طفولة صاحبنا، شخصية راعي قصر زناكة الذي كان أعرابياً لا يعرف الأمازيغية، وكان اسمه «ابن صفية». كان سكان قصر زناكة يربون معهم في دورهم نعاجاً أو معزاً يستعملون حليبها لاستخراج الزبد واللبن منه خاصة، يشربونه أثناء تناول وجبات التمر. كان كل منزل يدفع بشياهه إلى القطيع المشترك الذي كان يرعاه راع مشترك. وغالباً ما كان الراعي من السكان «العرب» الذين يتنقلون بخيامهم والذين يعرفون أماكن الرعي. كان الراعي يخرج بالقطيع صباحاً قبل طلوع الشمس ليعود به قبل غروبها، وأحياناً كان «يعزّب»، أي يقضي أسبوعاً أو نحوه بعيداً عن محيط المدينة طلباً للكلأ الجيد حتى إذا عاد حمل معه ما تضعه الحوامل من الشياه إلى أصحابها. وقد كان أميناً في الغالب.

وفي الفترة التي كان فيها «ابن صفية» راعياً كانت شعارات الحركة الوطنية قد انتشرت، فكان الأطفال يرددون شعار «يحيا الملك»، كلما كانت هناك مناسبة. ويذكر صاحبنا جيداً أن «ابن صفية» كان يتجنب النطق بالشعارات «الوطنية»، ربما خوفاً من السلطات الفرنسية وأعوانها. وقد اكتشف فيه الأطفال ذلك فصاروا يطلبون منه، ويلحون في الطلب كلما عاد بالقطيع مساء، أن يهتف مثلهم بصوت مرتفع: «يحيا الملك»، فكان يتجنب الاستجابة لطلبهم ويجتهد في صرفهم عنه بسلام. وذات مرة قرر الأطفال، وفيهم صاحبنا، أن يحملوه بالقوة على النطق بصوت مرتفع بعبارة «يحيا الملك»، فأحاطوا به وحاصروه أمام جدار، مهددين متوعدين، فما كان منه إلا أن استجاب لطلبهم على طريقته الخاصة إذ قال لهم: «راه حيا لكم، كونوا غير رجال». وعندما عاد الحاج محمد فرج ـ عميد الحركة الوطنية بالبلد ـ ذات مرة من سفر إلى الرباط تحلق حوله الناس كالعادة في مثل هذه المناسبات فحدثهم عن رحلته وقال لهم: «إن الملك يسلم عليكم واحداً واحداً». . . وكان الراعي ابن صفية حاضراً فالتفت جانباً وأخذ يضحك ويقول: «هل يعرفني الملك حتى يسلم علي».

ـ ٧ ـ

تلك كانت أهم الشخصيات التي كانت تشغل عالم الأطفال بقصر زناكة وتملأ بعض الفراغ في حياتهم، زمن طفولة صاحبنا، فالفراغ ورتابة حركة الزمن وندرة الجديد والغريب هي السمات الرئيسية التي كانت تطبع الحياة يومئذ. فعلاً، كان

«الزمن» في ذلك الزمان والمكان طويلاً، أطول كثيراً مما يحس به أبناء اليوم. كان أهل البلد يستيقظون باكراً، قبيل الفجر، ونادراً ما كان الإنسان، رجلاً أو امرأة، ينام إلى طلوع الشمس. كانت النساء يستيقظن قبل الفجر ويذهبن إلى السواقي ليأتين بالماء كما أشرنا إلى ذلك قبل. وبعودتهن إلى المنزل يستغرقن في أشغالهن اليومية الأخرى، وأهمها، بعد إعداد وجبات الأكل، غزل الصوف ونسج البرانس والجلابيب لأزواجهن وأولادهن وإخوتهن، أو لبيعها في السوق، وقد كانت المصدر الوحيد ـ تقريباً ـ للحصول على النقود (باستثناء ما يرد من التجارة المحلية المحدودة أو من إرساليات بعض العمال المهاجرين وكانوا قلة).

أما الرجال الذين كانوا يحرصون على حضور صلاة الفجر في المساجد فكان عليهم أن يذهبوا قبل ذلك للاغتسال في السواقي المتفرعة من عين «تزادرت»، وإذا لم يكن هناك ما يستوجب الاغتسال قصدوا حجرة الوضوء التي تكون في العادة مجاورة للمسجد وبجانبها بئر. إن الطهارة شرط للصلاة، فلا بد من الوضوء، ولا بد من الماء، ولم يكن هناك غير البئر لتوفير الماء في عين المكان. ومياه الآبار في فجيج مالحة ولكنها طاهرة: يأخذ الرجل من غرفة الوضوء وعاء من خشب بدون مقبض في الغالب، يأتي به إلى حافة البئر، ثم يسحب الماء بالدلو ويملأ وعاءه ويعود به إلى غرفة الوضوء ليأخذ مكانه جنب آخرين في صف واحد، وعلى ممر يستقبل الماء المستعمل ليذهب به غير بعيد إلى «المطمورة» (حفرة مسقفة). وبعد صلاة الصبح يتفرق الناس، بعضهم يلتحق ببستانه وبعضهم يلتحق بالمسيد أو بالمنزل، بينما يمكث آخرون في المسجد يقرأون القرآن ثم يعودون إلى منازلهم لتناول ما تيسر كفطور، تمر أو قهوة، حتى إذا ملأت شمس الضحى الكون بأشعتها الملتهبة كف الرجال عن العمل، ولجأوا إلى الأزقة المسقفة ليأخذ كل منهم مكانه في «المجمع» الذي يرتاده، والذي يظل منعقداً في جلسة متواصلة حتى غروب الشمس. هذا بينما تستمر النسوة في أشغالهن في البيت طول النهار.

كانت «المجامع» هي المكان المفضل، عند الكهول والشيوخ، لتمضية الوقت. كان «الجلوس» يبدأ في الضحى، وأحياناً قبلها. ولم يكن الرجل يغيب عن مجمعه إلا في أيام «السقي» سقي البستان، مرة في الأسبوع في الغالب، أو يوم السوق وأيام الحرث والحصاد... كان زمان المجمع، إذن، يستغرق معظم النهار، كل نهار. يجلس رواد كل مجمع، وفي الغالب يكونون من نفس الحي، في صفين متقابلين تحت السقيفة، متكئين على الجدار، وبعضهم يستلقي على الأرض متوسداً

البلد، ويعلقون ويخمنون... ويحكون ما حدث لهم أو لغيرهم في الماضي القريب أو البعيد، خارج فجيج في المهجر أو داخل محيطها في الوديان وأماكن الاحتطاب... حتى إذا رأوا قادماً على الطريق، رجلاً أو امرأة أمسكوا عن الكلام واتجهوا بأعينهم، بل بجميع جوارحهم نحوه، يتفحصونه من بعد وعن قرب حتى إذا مر تبعوه بأعينهم إلى أن يغيب، ثم يعودون للتعليق ومتابعة القيل والقال. أما إن كان المار امرأة ـ وغالباً ما كانت النساء يتجنبن المرور عبر هذه المجامع ـ فهم يسكتون ويغضون الأبصار، حقيقة أو تصنعاً. ولكن كثيراً منهم لا يفوتهم أن يحدقوا في جسم المرأة، من طرف خفي، رغم أن الإزار/ الحجاب يغطيها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها. لم يكن أحد يتجرأ على الكلام في أي امرأة تمر، لأن أي امرأة في البلد لا بد أن تكون أم فلان أو زوجة فلان أو أخت فلان، ومن ثم فالكلام في أية امرأة لا بد أن يصل إلى أحد أقاربها مع زيادة، فتكون النتيجة الخصومة التي تنذر بالشر. إن «الكلام» في المرأة اعتداء على الشرف، ومن العار ألا يهب الرجل للدفاع عن شرفه. ثم إن الرجل لا يليق به أن يتحدث عن النساء فـ «الكلام» يكون مع الرجال وفي الرجال. وإذن، لقد كان «الكلام» في المرأة غائباً تماماً في هذه المجامع، إلا همساً أو من وراء حجاب.

أما الكلام في الرجال، جداً أو هزلاً، فذاك هو الموضوع. ولكن بما أنه لم يكن هناك في أحياء البلد ـ أعني في أحياء القصر المعني من قصوره ـ رجل غير معروف، ولا كان في حياته ما لا يعرفه الناس، فلقد كان من السهل أن يقع أصحاب المجامع في أزمة فقدان موضوع الكلام. لذلك تجدهم يقبلون تكرار الكلام في نفس الموضوع، يعيدون حكاية «الخبر» مرات ومرات. وكثيراً ما كانوا يلتذون بالاستماع إلى نفس الشخص يعيد نفس ما حكاه بالأمس أو قبله، متسامحين فيما يأتيه من زيادة أو نقصان، فالخبر لم يكن من أجل ما ينقله من معلومات للسامع، بل من أجل تمضية الوقت. ولذلك فلم يكن معيار الصدق ذا شأن، فالشأن كل الشأن لتقديم القديم في ثوب جديد. أما الجديد نفسه فقلما يجود به الزمن، الذي هو قرين الرتابة في البلد الصحراوي، وكأن الصحراء ليست صحراء المكان بل صحراء الزمان أيضاً.

أما الغريب عن القصر فلا وجود له. وإذا وجد فساعة من نهار يقضي حاجته وينصرف. ولم يكن هناك في الحقيقة من غرباء يترددون على فجيج غير «العرب»

(البدو) الذين يأتون من حين لآخر ليعرضوا في إحدى الساحات، على طرف المدينة ما تحمله جمالهم من حطب أو ملح أو أقط (= جبن يابس في حجم المشمش)، وغالباً ما ينهون تجارتهم قبل غروب الشمس، ليقضوا الليل مسافرين وراء جمالهم أو على ظهورها.

كان كل شيء معروفاً، وسواء تعلق الأمر بقصر زناكة أو بغيره من القصور، فالسكان يعرف بعضهم بعضاً، يعرفون أنسابهم وما يملكون، وما يخفون وما يظهرون. وإذا غاب أحدهم عن المجمع وسأل عنه سائل كان الجواب: «هو في المكان الفلاني» أو عند فلان... إنهم يعرفون أين يكون الواحد منهم «حاضراً» عندما لا يكون جالساً بجانبهم: إن «المجمع» هو أيضاً مجمع الأخبار والمعلومات. وبما أن موضوعات الخبر والمعرفة محدودة في الغالب بحدود البلد ورتابة الحياة فيه فإن كل واحد يكون على علم بـ «كل شيء». وكما أن المجمع لا يستقيم بدون القيل والقال، ولو كان تكراراً لما قيل ويقال، فإن المقام لا يحلو فيه بدون حد أدنى من الاغتياب والنميمة. فإذا كان الشخص طرفاً في حديث أو جدال ثم غادر المجمع لسبب من الأسباب تحول إلى موضوع للحديث. ومن أجل ذلك يحرص المرتادون للمجمع على تجنب الغياب والمغادرة قبل انفضاضه، لأنهم يعرفون أن غيابهم قد يجعل منهم موضوعاً لتساؤلات الحاضرين وتعليقاتهم وتخميناتهم.

والحق أن هذه المجامع لم تكن كلها على شاكلة واحدة ولا على مستوى واحد من الوقار أو غيره: كان هناك مجامع للشيوخ، وأخرى للكهول، وثالثة للشبان، إضافة إلى تجمعات الأطفال... مجامع الشيوخ يقل فيها الكلام نسبياً ويكثر فيها النوم وقد لا تخلو من شخير. وفي الغالب يطبع الوقار الحركات والسكنات فيها، بما في ذلك حركات اللسان. أما مجامع الكهول فأكثر حيوية، حساً ومعنى، ومثلها مجامع الشباب ولكن مع صخب أكثر. وأكثر جلسات المجامع متعة، وكان يعقدها الشباب من حين لآخر، هي تلك التي تخصص لما يسمى بالأمازيغية «تومزيا»، أي ما يمكن ترجمته بـ «التشبيه الكاريكاتوري». كان هناك أشخاص معروفون بإبداعهم في هذا النوع من التشبيهات التي تفجر الحاضرين بالضحك تفجيراً إلى درجة يضطر معها بعضهم إلى الإمساك ببطنه أو إلى الوقوف هرباً من وقع التشبيه على خياله. وعند غياب هؤلاء المبدعين يكتفي رجال المجمع بإعادة تشبيهاتهم أو الاجتهاد في الإتيان بما يسلي ويضحك.

كانت «تومزيا» عند أهل فجيج هي متعتهم المفضلة، يعقدون لها الجلسات في

التشبيهات الكاريكاتورية التي تنتزع الضحك انتزاعاً وتحرك عضلات البطن والأحشاء كلها، فتساعد على الهضم! كانت جلسات «تومزيا»، ولا تزال، تتميز بروح رياضية عالية. فالشخص الذي يكون موضوعاً للتشبيه الكاريكاتوري كان عليه أن يضحك مع الضاحكين، وإذا هو أراد أن يكيل الصاع صاعين لمن جعله موضوع «تومزيا» فعليه أن يرد عليه برسم صورة كاريكاتورية له من خلال تشبيه أكثر إبداعاً وبلاغة.

أما إذا كان لا يأنس من نفسه القدرة على التفوق على خصمه، فإن عليه أن يضحك كما يضحك الحاضرون وأكثر. فالضحك لا يكون على الشخص موضوع «تومزيا»، بل يكون بسبب التشبيه ومن أجل الاحتفاء به، اعترافاً بغرابته وإبداع الخيال فيه. ومن آداب «تومزيا» تجنب التعرض لما يقدح في كرامة الشخص، والاقتصار بالتالي في «التشبيه» على هيئته أو لحيته أو بطنه... وبصورة عامة الوقوف عند المظهر الخارجي. ولم يكن يُتوخى من «تومزيا» القدح أو الاستصغار بل هي مجرد إبداع خيالي من أجل حمل المستمع على الضحك، إبداع تلعب فيه «الغرابة» الدور الأكبر. ومن دون شك فإن جو الجلسة، الذي يطبعه الاستعداد الجماعي لسماع الغريب والمضحك من التشبيهات، هو ما يضفي على جلسات «تومزيا» سحرها وجمالها. إنها من هذه الجهة أشبه بالجلسات التي تخصص لـ «النّكات». والفرق هو أن النكات أكثر تجريداً وتكون موضوعاتها غائبة في الغالب، أما «تومزيا» فموضوعها يكون حاضراً في الغالب والتشبيه يكون من النوع الذي يسمى في البلاغة العربية بـ «التشبيه التمثيلي» مع تضخيم الصورة أو إفقارها، وقلب في العلاقات وعدم توخي غرض من أغراض الهجاء أو المدح. على أن من تلك التشبيهات ما يأتي بليغاً جداً فيتسبب في بعض الإحراج لمبدعها ولموضوعها معاً.

لم يكن الأطفال يرتادون مثل هذه المجامع، فاقتراب الطفل من مجمع الشيوخ أو الكهول لا يكون إلا للسخرة، لمناداة قريب أو إبلاغ رسالة شفوية إلخ... أما فيما عدا ذلك فجلوس الأطفال مع الكبار قلة أدب لا تحتمل، ولا تسامح معها. أما مجامع الشباب فقد يقترب الأطفال منها ويجلسون على امتدادها أو بجوارها فيغض الكبار الطرف عنهم مقابل أن يلزموا الصمت وكامل «الأدب»، وإلا رشقهم الكبار بعبارة: «اذهبوا إلى أقرانكم»، فيغادرون المكان مطرودين. وإذا تعنت أحد الأطفال أو تلكأ ولم يغادر كان جزاؤه الصفع أو الرشق بالحجارة. أما جلسات «الشيت» ومثيلاتها، حيث يتبارى المتبارون من الشباب جالسين في صمت، فلقد كانت مفتوحة في وجه المتفرجين من الأطفال الذين يتحلقون حولها في صمت، يتعلمون

قواعد اللعب وأساليب المناورة. وهي كما قلنا من جنس لعبة الشطرنج، تشد الأنظار والاهتمام وتحمل المتفرج واللاعب معاً على نسيان نفسه وما خرج من أجله إن كان خرج لغرض أو سخرة، كما حدث لصاحبنا حينما أرسله خاله لشراء السجائر له، فنسي نفسه في تجمع «أخباض» ونسي المهمة..

ـ ٨ ـ

تلك كانت أبرز مظاهر التسلية الجماعية في مسقط رأس صاحبنا. لقد كانت التسلية الرئيسية هي «الكلام»، وبالتالي فالتسلية الفردية كانت شبه منعدمة. ومن هنا ذلك الطابع الجماعي للحياة في هذا النوع من المدن الصغيرة المعزولة. لم تكن هناك حياة فردية خاصة، فكل شيء ـ تقريباً ـ كان على الشيع، وكل شيء في حياة الأفراد كان معروفاً أو قابلاً لأن يعرف بسهولة. أما الحياة الزوجية، مكمن الأسرار، عادة، فقد كانت مختصرة في نوم الرجل مع امرأته ليلاً، من العشاء أو بعده إلى الفجر. أما نهاراً فلم يكن الرجل يرى زوجته إلا مع باقي نساء الدار، مع أمه وأخواته وزوجات إخوته. وكان كل من الزوجين يتجنب إظهار الاهتمام بالآخر. ولم يكن أحدهما يسمي الآخر أو يناديه باسمه، إذا كان هناك من يسمع.. وإذا تحدثت الزوجة عن زوجها أمام الأهل أو نساء الحي استعملت ضمير الغائب (هو قال.. هو فعل..)، وإذا نادته استعملت ضمير المخاطب. وإذا سمى الرجل زوجته أمام أهله أو أصحابه ذكر اسمها كاملاً: «فلانة الفلانية.. أو بنت فلان» وكأنه بذلك يقيم الدليل على أنه ما زال ابن أمه وأبيه وأن زوجته ما زالت تتحدد هويتها عنده بأبيها ونسبه. وبكيفية عامة يمكن القول إنه لم تكن هناك أسرار بين الزوج وزوجته، إلا في النادر. فالزوج كان ابن أمه وأبيه دائماً، ما داما في الحياة، مهما تقدمت السن. أما الأسرار والأحاديث الخاصة فهي عادة بين الأم والأب حينما يتجاوز بهما العمر مرحلة «الزوجية»، أعني عندما يصبحان «متقاعدين»، عن الإنجاب، لا ينام أحدهما مع الآخر. فـ «الوالد» ينام في غرفته وحده، أما «الوالدة» فتنام مع الأطفال.

تلك هي القاعدة العامة. وككل قاعدة هناك استثناءات تزكيها، كما يقال. ولعل علاقة خال صاحبنا بزوجته الجديدة من هذه الاستثناءات. كانت طفلة تصغره بكثير، وكانت تلعب مع صاحبنا. ولكن ذلك، أعني تفرغها للعب، كان فقط أثناء غياب زوجها للعمل في الجزائر، وهو غياب يستمر في العادة ستة أشهر. أما في

الوقت معه في غرفتها، وكان هذا السلوك يثير امتعاض أمه وأبيه، فلم يكن من «مكارم الأخلاق» الاختلاء بالزوجة ساعات كاملة في النهار. ولكن الأب والأم، وكانا طاعنين في السن، كانا مغلوبين على أمرهما. كان كل ما يستطيعان القيام به من ردود الفعل هو الإعراض أكثر ما يمكن عن «الكلام» مع هذين الزوجين اللذين أصبحا «فريسة للشيطان».

عندما يسافر الخال إلى مقر عمله بالجزائر تبقى العروس مع حميها وحماتها وأخت زوجها تقضي جل الوقت في اللعب مع صاحبنا. كانا طفلين يلعبان بكل براءة الأطفال يختصمان ويتصالحان في الحين. ولم يكن صاحبنا يقيم أي فرق بين أن يلعب مع الطفلة زوجة خاله في المنزل أو مع أقرانه الصغار من بنين وبنات في الشارع، لم يكن يقيم أي فرق بينه كصبي وبينها كصبية إلى أن كان ذات يوم حينما دعاه جده إليه ليهمس له في أذنه: «لا تلعب مع فلانة (زوجة خاله)، إنها امرأة..».

ويستطيع صاحبنا أن يؤكد اليوم تأكيداً قاطعاً أنه ما إن سمع من جده تلك الكلمات حتى شعر بخندق لا قرار له قد حفر فجأة ليفصل بينه كـ «رجل» وبين فلانة كـ «امرأة». وأكثر من ذلك يستطيع أن يؤكد جازماً أنه منذ تلك اللحظة رسخ في وعيه أن علاقة «الذكر» بـ «الأنثى» من بني الإنسان لا يمكن أن تكون بريئة بالكامل مهما كان سنهما. لقد صار يدرك منذ ذلك الوقت أنه لا بد أن يكون هناك وراء علاقة الصداقة واللعب بين الصبي والصبية، بين الفتى والفتاة، شيء غير مرغوب فيه. لم يكن صاحبنا آنذاك يدرك ما هذا «الشيء»، ولكنه يستطيع مع ذلك أن يؤكد الآن أنه شعر آنذاك بما يشبه وخز الضمير من جراء ما كان يمارسه من قبل من ألعاب «الزوج والزوجة» التي تحدثنا عنها من قبل. إنه يتذكر اليوم، بكل وضوح، هذه الواقعة التي بقيت حية في وعيه تفعل فعلها فيه منذ ذلك الوقت، بل إنه يستطيع أن يخمن بأن أناه الأعلى، الخاص بهذا المجال، قد تأسس على هذه الواقعة، وبالتالي فعلاقته بالمرأة عموماً «محكومة»، إلى حد كبير بهذا النمط من الأنا الأعلى، حتى إنه ليذكر أنه كثيراً ما حدث له وهو شاب أن حمل نفسه على صرف النظر عن أية فتاة تشد إليها بصره، وذلك تحت ضغط سؤال كان يأتيه من أعماق نفسه ليهمس في أذنه: «ما دمت لن تتزوجها فلماذا تشغل نفسك بالنظر إليها»؟

سؤال لا يستطيع أن يدعي أنه تحرر من سلطته، حتى في أكثر فترات مراهقته وبلوغه جموحاً وهياجاً.

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

يشعر صاحبنا وهو يتهيأ لمواصلة تتبع معارج مساره الشخصي أيام طفولته، والتعريف بالبيئة التي نشأ فيها وقضى طفولته بين مساربها ودروبها، يشعر بالحاجة إلى القول إن من الذكريات ما تنتمي حوادثها إلى الماضي، وإن منها ما ينتمي إلى المستقبل، لا بحدوثها الزمني بل بآثارها ونتائجها. إن الذكريات التي تم عرضها إلى الآن مع ما تخللها من حفر واستنطاق تتعلق بأحداث كان لها بدون شك دور هام في تكوين شخصية صاحبنا، سواء على صعيد الوعي أو على صعيد اللاوعي، ولكنها ـ في نظره الآن على الأقل ـ لم يكن لها أي «فضل» عليه، لا بوصفه مجرد كائن بشري، بل بوصفه هذا الشخص الذي يكتب الآن والذي تخلع عليه الصحافة أحياناً ذلك اللقب الذي يدخله في زمرة «المفكرين»...

يتذكر صاحبنا أنه عندما قرأ اسمه مقروناً، أول مرة، بهذا اللقب، وكان ذلك منذ ما يقرب من عشر سنوات، شعر بنوع من الخجل الممزوج بالإحراج، فراح يستعرض في ذهنه شريط حياته، لعله يعثر فيه على ما يستحق أن يؤول إليه شرف هذا اللقب. أخذ يرجع القهقرى بتاريخ حياته الفكرية حتى إذا وصل مرحلة الطفولة انتصبت في مخيلته، لا بل أمام بصره، صورة ذلك الرجل الذي يرجع إليه، بالفعل، فضل غرس شجرة العلم في مسقط رأسه فجيج، الشجرة التي مكنت جيله والأجيال اللاحقة في هذه المدينة من ولوج عالم المعرفة والانخراط في سلك المثقفين والفنيين والاختصاصيين على جميع المستويات. إنه الحاج محمد فرج الذي لا يمكن، ولا يجوز، الحديث عنه ضمن سياق الذكريات التي استعادها صاحبنا في الصفحات

الماضية والتي تنتمي حوادثها إلى ما يشكل ماضي طفولته. إن القطيعة التي أحدثها هذا الشخص في مدينة فجيج بين الماضي والمستقبل، بين المسيد والمدرسة العربية العصرية، بين اجترار الحياة وبين صنع الحياة، بين العزلة عن الوطن بتأثير الجغرافيا وبين الانخراط اللامحدود في العمل الوطني لصنع التاريخ، تاريخ الوطن، إن هذه القطيعة التي عاصر صاحبنا بدايتها وكان ثمرة من ثمراتها تفرض عليه الآن، وهو يستعرض وقائع حياته وهو طفل، أن يدشن بدوره قطيعة داخل ذكرياته نفسها، فيميز فيها بين ما «ذهب مع الماضي» وبين ما ظل يبني المستقبل، أعني الوقائع التي يعود إليها الفضل فيما صار لصاحبنا من ذكر في الساحة الثقافية المغربية والعربية.

إن المقام هنا ليس مقام التأريخ لحياة هذا الرجل الذي غرس الوطنية في فجيج، فكان من أهلها وطنيون ومقاومون ساهموا في الكفاح الوطني المغربي من أجل الاستقلال بقدر أكبر كثيراً من حجم بلدهم، ذلك الرجل الذي أنشأ مدرسة النهضة المحمدية، الوطنية العربية الحرة، بأساتذتها وتلامذتها، وأكاد أقول بجدرانها وأحجارها، والذي كافح من أجلها وأعطاها من فكره وعرقه ووجدانه ـ ولا أقول من ماله إذ لم يكن ذا مال ـ مما جعل منها بوتقة من ذهب صنعت جيلاً من المتعلمين والمثقفين والاختصاصيين في مختلف المجالات العلمية ليس صاحبنا إلا رقماً في السلسلة الطويلة التي تنتظمهم... أقول إن المقام هنا ليس مقام التأريخ لسيرة هذا الرجل الفذ، ولا مقام التمجيد والتنويه بأياديه البيضاء على أبناء بلده، فهو يستحق بالفعل أن يؤرخ له كواحد من الشخصيات التي ساهمت بقسط وافر في صنع المغرب الحديث، وأن يخلد اسمه في سجل بناة هذا الوطن. وكاتب هذه السطور لا يستطيع أن يقوم بهذا العبء وحده، فالرجل أكبر كثيراً من أن تتحدث عنه ذاكرة فرد واحد ولا أن تفي بحقه معارف شخص واحد.. ولذلك فالتعريف به هنا سيكون مجرد لقطات من فيلم طويل يحكي قصة كفاح، ويعطي المثال في الكفاح، لقطات سريعة وباهتة سجلتها ذاكرة صاحبنا أيام كان طفلاً بين التاسعة والثانية عشرة من عمره، ثم صارت عناصر مندمجة في ذكرياته، لا بل عناصر مؤسسة لذاكرة «جديدة» مستقبلية، على أنقاض ذاكرته «القديمة» الطفولية.

يبدأ تاريخ هذا الرجل في ذاكرة صاحبنا بجملة من «اللقطات» ترجع إلى ما قبل بناء مدرسة النهضة المحمدية. ولعل أجدر هذه اللقطات بالتقديم تلك الصورة التي ما زالت عالقة بذهن صاحبنا منذ أن كان طفلاً في نحو الثامنة من عمره يتردد بمفرده، أحياناً، بين دار أهله لأمه ودار أهله لأبيه عبر أزقة مسقفة مظلمة تتخللها

بين حين وآخر فتحات للإضاءة، ولكنها غير كافية بالمرة. لقد كان المرور عبر هذه الأزقة يتطلب المعرفة بمواقع الحفر الموجودة فيها والمصطبات القائمة على جوانبها والتي ينام عليها نهاراً بعض الرجال، خصوصاً الكبار منهم، هروباً من حرارة الشمس أثناء الصيف أو من قسوة البرد القاري أثناء الشتاء. كما كان على المارة في هذه الأزقة المسقفة أن يعرفوا انعراجاتها والتواءاتها وتفرعاتها وإلا ضرب الواحد منهم رأسه على هذا الجدار أو ذاك وتاه تيهاً لا مخرج منه. وأكثر من ذلك فإن على المار في هذه الأزقة أن يكون عارفاً بـ «قوانين المرور» الخاصة بها حتى لا يصطدم مع غيره ممن يأتي في اتجاهه. إن عليه أن يفتح أذنيه جيداً ويعبئهما لالتقاط الحركة، أي حركة، ويميز بين حركة من يمشي خلفه وحركة من يمشي أمامه، في نفس الاتجاه أو في الاتجاه المعاكس. ثم إن عليه أن يعلن عن «وجوده» من حين لآخر إما بـ «حنحنة» وإما بترديد عبارات مألوفة مثل «استغفر الله» أو التمتمة بما يشبه قراءة القرآن.. ولا بد من أن نضيف هنا عنصراً آخر، يستحضره الأطفال والنساء خاصة، وهو أن المرور عبر هذه الأزقة المسقفة المظلمة يتطلب نوعاً من الخشوع ونوعاً من «الأدب» لأنها كانت مسكونة بـ «المسلمين» (الجن) وبالتالي لا ينبغي إزعاجهم ولا إساءة الأدب معهم.

كان منزل أخوال صاحبنا يقع في حي وسط المدينة (قصر زناكة)، بجوار المسجد الكبير كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل. أما منزل أهله لأبيه فكان في حي «أورتان» بمنطقة «أدريت» في الجانب الآخر في طرف المدينة. وقريباً منه، في اتجاه البساتين، كان منزل الحاج محمد فرج، فكانت الطريق التي يسلكها هذا الأخير عند ذهابه إلى المسجد الجامع ليؤم بالناس الصلوات الخمس هي نفس الطريق التي كان يسلكها صاحبنا في تنقلاته بين منزل أخواله ومنزل أبيه. إنها من نوع تلك الأزقة المسقفة المظلمة التي تحدثنا عنها. ولم يكن هناك طريق أخرى مفتوحة على السماء سوى الطريق الخارجية التي تمر على أطراف المدينة.. وكانت طويلة.

إن صاحبنا يتذكر جيداً ذلك «اللقاء» الأول الذي جمعه داخل هذه الأزقة المسقفة مع الحاج محمد فرج. فلقد غادر ذات صباح بيت أهله لأبيه قاصداً المسجد الكبير لأداء صلاة الصبح وليلتحق بعد ذلك بالمسيد لمراجعة القرآن. وما إن خرج من زقاق منزله ليدخل الزقاق الرئيسي حتى وجد نفسه وراء الحاج محمد، الذي كان هو الآخر ذاهباً إلى المسجد ليؤم بالناس صلاة الصبح. كان الحاج محمد طويلاً في غير إفراط، يرتدي في العادة برنساً أبيض يلقي بجناحه الأيمن على كتفه الأيسر،

ثانياً قلنسوته على رأسه.. كان يمشي، وهو يقرأ القرآن، بخطوات ثابتة متئدة.

ولشد ما كانت فرحة صاحبنا حين وجد نفسه ذلك الصباح الباكر وهو يمشي خلف هذا الرجل الذي كان نادراً ما يُرى خارج المسجد، والذي كانت صورته في الأذهان ـ أذهان الأطفال على الأقل ـ صورة ملاك. ومعلوم أن الأطفال لا يتصورون الأمور إلا مجسمة مشخصة. ويستطيع صاحبنا أن يؤكد أنه كان إذا سمع الناس يتحدثون عن الملائكة يتخيلها جميعاً على صورة واحدة هي صورة الحاج محمد ببُرْنُسه الأبيض وقوامه المستقيم وخطاه الثابتة وصمته الهادىء الذي يملأ النفس اطمئناناً. كاد صاحبنا يطير فرحاً وهو يمشي خلف هذا الرجل/ الملاك. ويستطيع الآن أن يجزم أنه، على الرغم من أن طفولته كانت خالية تماماً من المتاعب والمخاوف، لم يعش الطمأنينة بين جوانحه ولم يشعر بها تحيط به من كل جانب مثلما حصل له ذلك الصباح. وهل هناك من طمأنينة أعمق وأشمل من تلك التي يشعر بها الإنسان وهو يمشي وراء ملاك، وراء شخص تجمع النساء على القول إن «الجن» تنسحب من الأزقة التي يمر بها لتخلي له الطريق، وذلك بمجرد ما يفتح باب داره للخروج. يتذكر صاحبنا أن جدته من أمه حدثته يوماً حديثاً لا يذكر منه شيئاً سوى هذه العبارة: «إن من يرى النبي في منامه تفتح له الملائكة أبواب الجنة ليدخلها دون حساب ولا عقاب». ويتذكر صاحبنا أنه رأى في المنام، ليلة اليوم التالي، النبي (ص) على صورة شمس ناصعة البياض وبجانبه الحاج محمد بلباسه الأبيض على نفس الهيئة التي يكون عليها عندما يخطب في الناس خطبة الجمعة.

تلك هي صورة الحاج محمد كما احتفظت بها ذاكرة صاحبنا، عندما كان عمره لا يتجاوز تسع سنوات. وهناك ذكريات أخرى سمعية هذه المرة، تتردد فيها أصداء خصوم هذا الرجل في ذلك الوقت. إن صاحبنا ما زال يتذكر أنه بينما كان يلعب كعادته أمام أمه التي كانت منهمكة هي وجارتان لها في نسج بُرنس على منوال خشبي، فإذا بسمعه يلتقط هذه العبارة من حديث إحدى تلك النسوة: «إنه عقاب الأولياء»، معلقة بذلك على حادث انهيار سقف المسجد الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول. وكان الحاج محمد قد أمر، قبل ذلك الحادث، بهدم ضريح كان بجانب المسجد بهدف توسيع هذا الأخير. ولولا احترام الناس له وتقديرهم لعلمه وفضله لما قبلوا منه ذلك على الرغم من كل الدروس والأحاديث والخطب التي كان يندد فيها بزيارة الأضرحة والتماس العون من الأولياء. لقد كان يقول ويكرر القول إن ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو بمثابة الشرك. وكان هذا الكلام يتناقض تماماً مع

أحدثت هذه الأقوال زعزعة، بل انقلاباً، في أذهان الناس فكان منهم المؤيد المتحمس وكان منهم المستنكر المتحفظ.

ويتذكر صاحبنا أنه سمع ذات يوم جده لأمه ـ الذي كان محافظاً ـ يحكي كلاماً يرويه عن «عالم» منافس للحاج محمد يقول فيه إن دعوة هذا الأخير دعوة «وهابية». كان هذا العالم من الجيل القديم، وإليه يعزى تأسيس جماعة «الدليل» (قراء دليل الخيرات)، وكان يحظى بتقدير واحترام جد صاحبنا الذي كان من «أصحاب الدليل». ولم يكن هؤلاء متحمسين للحاج محمد فرج أو لآرائه السلفية النهضوية التي كانت تنتشر بسرعة، يستجيب لها الكهول والشباب مما قلص بسرعة من مكانة «أصحاب الدليل» الذين انتهى أمرهم إلى التوقف وإغلاق مقرهم.

ومن المؤاخذات التي كان يسجلها وينشرها ضده أمثال هؤلاء «المحافظين» كونه يخطب خطبة الجمعة بدون ورقة، وأنه لم يكن يحفظ القرآن كـ «الماء» إذ قد يحدث له ألا يستحضر الآيات بكاملها وهو يخطب يوم الجمعة فيكمل له بعض المستمعين، وكان هناك من يقول عنه إنه «يدخل ويخرج في الكلام» ويخلط أمور الدنيا بأمور الدين (= كان التقليد السائد أن تخصص خطبة الجمعة كلها للحديث عن الآخرة والاستعداد لها، بينما كان الحاج محمد يخصص القسم الأكبر منها لشؤون الإصلاح والنهضة)... غير أن هذه الانتقادات لم تكن تؤثر في شعبية الحاج محمد ولا في ثقة الناس به، خصوصاً وقد كانت السلطات الفرنسية تطلب منه أن يكتب خطبة الجمعة (حتى تتمكن من فرض رقابتها) ولكنه كان يرفض الرضوخ لهذا الطلب فيأتي دوماً إلى المنبر فارغ اليدين ليخاطب الناس مباشرة بكل جوارحه، بلسانه وبصره ويديه.

ومع أن صاحبنا لم يكن يستوعب تمام الاستيعاب معنى طلب السلطات الفرنسية من الحاج محمد كتابة خطبة الجمعة، عندما سمع الناس يتحدثون بذلك، ومع أنه كان يثق ثقة تامة في كل ما يقوله جده لأمه الذي يُعزّه ويجله، فإنه لم يتأثر قط بما سمعه من انتقادات في حق الحاج محمد. لقد كانت صورة هذا الأخير في مخيلة صاحبنا من تلك الصور الذهنية الثابتة التي لا تقبل الخدش ولا ينال منها التشويش.

هذه الصورة التي احتفظت بها ذاكرة صاحبنا تجد مصداقيتها لديه فيما ترامى إلى سمعه لاحقاً من أخبار وشهادات صادرة من رفاق الحاج محمد الذين عملوا معه

وعاشروه عن قرب. ويمكن تلخيص هذه المعلومات والأخبار في العبارات التالية:

كان الحاج محمد فرج من رجالات السلفية النهضوية بالمغرب، الذين مارسوا الوطنية والتحديث في الدين وباسم الدين، فجمعوا بين الإصلاح الديني والكفاح الوطني والتحديث الاجتماعي والثقافي في عملية واحدة. ولد الحاج محمد فرج في قصر زناكة بفجيج من عائلة متواضعة، ولكنها محترمة. وبعد أن حفظ القرآن ودرس «العلم» (بعض متون الفقه والنحو...) على قاضي فجيج يومئذ سافر إلى فاس حيث قضى سنة ونيف في القرويين عاد بعدها ليتولى منصب القضاء في فجيج، ثم ترك هذا المنصب وقصد مدينة «مشرية» بالجزائر، وهناك ربط علاقات برجال السلفية النهضوية الجزائرية المنضوين تحت لواء «جمعية العلماء الجزائريين المسلمين» التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس. وعندما أخذت السلطات الفرنسية هناك تمعن في مضايقته عاد إلى فجيج فنصّبه أهلها إماماً على مسجد زناكة الجامع، فكان يؤم بالناس الصلوات الخمس ويصلي بهم الجمعة ويدرس كل يوم بعد العصر الحديث والفقه والنحو والتفسير، وكان صاحبنا من الأطفال المواظبين على حضور دروسه بالمسجد بعد صلاة العصر وعمرهم يومئذ لا يتجاوز العاشرة. وكان يفسح لهم المجال في مجلسه على جانبه الأيمن في الغالب. أما وسط الصفوف الأولى فكان مخصصاً لمجموعة من حفظة القرآن من الشباب الذين كانوا يحضرون دروسه بانتظام، يتناوبون على قراءة المتن الذي يشرحه، ومن بين هؤلاء سيختار المعلمين لمدرسة النهضة المحمدية التي أنشأها.

وفي أثناء ذلك كان الحاج محمد يتردد على فاس حيث كانت له علاقات متينة مع شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، أبي الوطنية والسلفية النهضوية الحديثة بالمغرب. ومن اتصاله بالوطنيين، رجال حزب الاستقلال يومئذ (١٩٤٦) كانت فكرة فتح مدرسة وطنية حرة بفجيج. وبالفعل حصل على رخصة من وزارة المعارف في حكومة المخزن لفتح مدرسة باسم «مدرسة النهضة المحمدية» (نسبة إلى الملك محمد بن يوسف = محمد الخامس، ملك المغرب يومئذ).

كانت مدرسة النهضة المحمدية بفجيج، إذن، إحدى تلك المدارس التي أنشأتها الحركة الوطنية في مختلف جهات المغرب: مدارس حرة، بمعنى أنها لا تخضع للسلطات الفرنسية ولا تطبق برامجها، بل يشرف عليها رجال الحركة الوطنية. كانت هذه المدارس تتبع رسمياً (بل اسمياً فقط) وزارة المعارف في «حكومة» المخزن، التي لم تترك لها الحماية الفرنسية سوى الإشراف على الأوقاف والتعليم الديني (= القرويين

وطنياً محلياً. غير أن الحركة الوطنية جعلت منها مدارس عصرية معربة في أفق أن تصبح البديل الوطني العصري للتعليم الفرنسي بالمغرب.

ـ ٢ ـ

بدأ صاحبنا دراسته، كما ذكرنا، في المسيد أولاً، ثم قضى نحواً من سنتين في مدرسة رسمية فرنسية، ثم التحق بمدرسة النهضة المحمدية بمجرد أن فتحت أبوابها. وكان والده من بين أعضاء «لجنة الأربعين» التي كانت مكلفة بالسهر على بنائها، وكانوا من رجال الحركة الوطنية في البلد، أعني البارزين منهم المرافقين والملازمين للحاج محمد.

فتحت المدرسة أبوابها بمجرد ما حصل الحاج محمد على رخصة من الرباط، قبل اكتمال بناء حجراتها. لقد بدأت تعمل مؤقتاً في «دار الجماعة» التي كانت تتألف من صحن وعدة غرف، مع الاستعانة بغرف مسيد مجاور، وذلك في انتظار الانتهاء من تشييد بناية المدرسة. والحق أن فتح هذه المدرسة كان فتحاً جديداً في حياة هذا البلد، فتحاً أحدث انقلاباً، ليس فقط في نظام التعليم وطرقه ومناهجه، بل أيضاً في عقول الآباء والأمهات. لقد كانت وسيلة لنقل «الوطنية» ـ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان سياسية واجتماعية وثقافية ـ إلى الأسر والبيوت. كان الآباء فخورين بكون أبنائهم يتعلمون العلوم العصرية باللغة العربية وعلى أيدي رجال وطنيين، آملين، بل متأكدين بأن أبناءهم سيصبحون، حينما يكبرون، «رجال المستقبل» بكل ما تنطوي عليه هذه العبارة من معان، وفي مقدمتها امتلاك السلطة. على أن ما يثير الانتباه بصورة خاصة في هذا المجال هو أن الآباء الفجيجيين المعروفين بسلوكهم المحافظ سمحوا لبناتهم بالالتحاق بهذه المدرسة، حيث بدأن يدرسن مع البنين في أقسام مشتركة وبدون حجاب، وكن يتقدمن التلاميذ الذين يصطفون مثنى مثنى لقراءة الأناشيد الوطنية جهراً كل صباح قبل دخولهم إلى أقسامهم.

لقد قبل الآباء هذا التطور ما دام الحاج محمد الذي يثقون فيه ويكبرون نضاله وتضحياته هو المشرف والقائد لهذه المستجدات. أما النساء فلعل ما كان يشد انتباههن ويثير تعجبهن هو استغناء الأطفال في المدرسة عن الألواح الخشبية

واستعمال الورق والدفاتر والكتب. وكانت كتب القراءة أكثر إثارة للاستغراب لما كانت تشتمل عليه من صور توضيحية، خاصة صور الحيوانات. إن صاحبنا يتذكر جيداً كيف كانت جدته لأبيه تتعجب مما كانت تراه في تلك الكتب من صور وما كانت تسمعه من مضامين نصوصها. كانت تقول لحفيدها، مستغربة ومازحة في الوقت نفسه: «سبحان الله.. لقد اعتدنا أن يقرأ الناس العلم، وأنتم تقرأون حكايات القطة والفأر والذئب والثعلب.. إنها والله لعلامة من علامات قيام الساعة». أما أصحاب الكتاتيب القرآنية فقد كانت ردود فعلهم السلبية أكثر جدية وأشد استنكاراً. والواقع أنه قامت قيامتهم فعلاً عند افتتاح المدرسة، فلقد تركهم الأطفال وحدهم في مسايدهم إلا ما كان من أفراد يعدون بالأصابع. وكان أبلغ تعبير عن هذا الانقلاب الذي حصل في نظام التعليم ومضمونه بالبلد ما علق به المرحوم «السي محمد خلوف» عميد أصحاب المساييد آنذاك، وصاحب المسيد المجاور للمسجد الكبير إذ قال واصفاً حال مسيده بعد أن تركه التحاق الأطفال بالمدرسة الجديدة شبه فارغ: «لقد رُفع القرآن يوم فتحت هذه المدرسة».

ولم تكن العجائز وأصحاب الكتاتيب القرآنية هم وحدهم الذين لم يستسيغوا «المدرسة» وما يدرس فيها. لقد كان هناك «أصحاب الجماعة» أنفسهم أولئك الذين كانوا على علاقة بالسلطات الفرنسية في البلد مما جعل منهم خصوماً سياسيين للحاج محمد ورفاقه الوطنيين. كان من بين أفراد تلك «الجماعة» من كان يتعامل مع سلطات الحماية، جواسيس ومخبرين، ينقلون إليها أخبار الوطنيين. وقد أطلق عليهم الحاج محمد وأصحابه اسم «المنافقين»، تشبيهاً لهم بـ «المنافقين» الذين ورد ذكرهم في القرآن والذين كانوا بـ «المدينة» أيام بعثة الرسول (ﷺ) يظهرون الإسلام ويبطنون غيره ويكيدون للمسلمين، هم وحلفاؤهم من خصوم الدعوة المحمدية. ولما كان نشاط الوطنيين في تلك الفترة مركزاً كله حول تشييد البناية الجديدة للمدرسة فقد تجندت السلطة الفرنسية وحلفاؤها «المنافقون» لوضع العراقيل أمام هذا المشروع. غير أن جهودهم باءت بالفشل أمام تضامن السكان واشتراكهم الجماعي والتطوعي في العمل والبناء ليل نهار، يتقدمهم الحاج محمد فرج الذي كان يساهم بنفسه في الأشغال: يعجن الطوب ويحمل الأحجار... الخ.

وهكذا لم يمض سوى عام أو نحوه حتى استقبلت المدرسة تلاميذها في بنايتها الجديدة. ولم تمض سوى سنتين حتى تخرج فيها (سنة ١٩٤٩) أول فوج يحمل الشهادة الابتدائية، وكان من بينهم صاحبنا. وقد عينت «وزارة المعارف» في حكومة

المخزن ـ وبتنسيق مع قادة الحركة الوطنية بدون شك ـ لجنة لإجراء امتحانات هذه الشهادة في هذه المدينة النائية، لجنة تتألف من السادة الأساتذة: مولاي مصطفى العلوي الذي كان مدير المدرسة الوطنية بمكناس، ومحمد العربي الأسفي الذي كان يعمل معه أستاذاً في نفس المدرسة، ومحمد التسولي مدير المدرسة الوطنية الحرة ببركنت (عين بني مطهر جنوب وجدة) وبلحسيني العلوي مدير المدرسة الوطنية الحرة بآزرو. وكان هؤلاء جميعاً من رجالات الحركة الوطنية البارزين، ويدل مجيئهم إلى فجيج، كأعضاء في لجنة الشهادة الابتدائية مكلفين بتصحيح الأوراق وإعلان النتيجة، على المكانة التي كانت للحاج محمد فرج في قلب الحركة الوطنية المغربية، كما يدل على الأهمية التي كانت توليها هذه الحركة لمدينة فجيج المعروفة بنضالها ضد الاستعمار الفرنسي الذي حاول اقتحامها مراراً ـ من الجزائر ـ قبل فرض حمايته على المغرب، فلم يستطع.

ذلك عن الانقلاب الذي أحدثه الحاج محمد في فجيج بتشييده لهذه المدرسة. غير أن صورة هذا الانقلاب كما عرضناها ستبقى ناقصة إذا لم نتحدث عن ذلك التحول الذي كان يجري داخل المدرسة نفسها، في أشخاص معلميها وتلامذتها. لقد تحدثنا عن الحاج محمد وتكوينه العلمي فأشرنا إلى دراسته على قاضي فجيج أولاً ثم قضائه سنة أو سنتين بالقرويين بفاس. غير أن الدراسة على فقيه أو في معهد علمي كالقرويين ليست هي التي كونت الشخصية العلمية لهذا الرجل، فالواقع أنه كون نفسه بنفسه: لقد كان عصامياً بكل ما في الكلمة من معنى. كان لا يغادر المنزل إلا إلى المسجد للصلاة أو التدريس، أما ما بين ذلك من أوقات، وحتى ساعة متأخرة من الليل، فقد استغرقته مطالعاته التي وسع نطاقها بعد افتتاح المدرسة وأصبحت تشمل التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والحساب، فضلاً عن النحو والفقه والتفسير والحديث والبلاغة. لقد كان عالماً علَّم نفسه، متفتح الذهن، حداثياً في تفكيره وسلوكه إلى درجة تثير الإعجاب والاستغراب معاً. لقد بدأ إماماً محدثاً في مسجد فانتهى إلى رجل تحديث وحداثة دون أن يشعر بتناقض في شخصيته.

وبما أنه كان إماماً ومديراً لمدرسة فقد كان قدوة في المجالين كليهما، مجال الحياة العامة ومجال الحياة المدرسية. ففي المجال الأول استطاع أن يؤثر في الناس، رجالاً ونساء، فتخلوا عن معتقداتهم المرتبطة بالطرقية وسلوكياتها وفي الاعتقاد في الخرافات والجن، وغدا التفسير العلمي الموضوعي للظواهر ينتشر ويتعمم، وتحرر الدين والشعائر الدينية من البدع والطقوس التي ليست من جوهره ولا من سننه.

وامتدت آثار هذا التحديث إلى المرأة التي كان محكوماً عليها بالأمية المطلقة، إذ لم يكن هناك من قبل أي مجال لتعليمها، فالكتاتيب القرآنية كانت مسدودة في وجهها.

وأكثر من ذلك نظم الحاج محمد برنامجاً لمحاربة الأمية في صفوف الكبار، فكان ذلك نوعاً من الانقلاب على صعيد المجتمع كله: لقد كانت «مجامع» القيل والقال هي مجال اللقاء الوحيد ـ تقريباً ـ بين الرجال، وها هي دروس «محاربة الأمية» تزاحمها، بل وتحاربها، بالدفتر والقلم... وأكثر من ذلك وأهم أصبحت الجرائد الوطنية التي كان الحاج محمد يستوردها خفية من الرباط (جريدة **العلم** خاصة) ومن الجزائر (جريدة **البصائر**) وسائل لتكوين مزدوج: تكوين تعليمي وتكوين وطني. لقد كان الكبار يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة في دروس محو الأمية ويتعلمون المطالعة والفهم في الجرائد الوطنية. وكاتب هذه السطور ما زال يتذكر جيداً كيف أن والده، الذي كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، قد صار مُدمناً على قراءة الجرائد الوطنية، يفهم ما بين السطور قبل ما تقوله السطور، دون أن يعرف قاعدة نحوية بله أن يطبقها. كان هو وأمثاله يقرأون الجرائد قراءة «لانحوية»، ومع ذلك لم يكونوا يخطئون في فهم المعنى لأن قراءتهم كانت قراءة «وطنية» لجرائد وطنية. إن عصامية الحاج محمد قد أثمرت عصاميات أخرى في صفوف صحابته من رجال الحركة الوطنية.

على أن عصامية معلمي المدرسة كانت، بحق، نادرة المثال. كان الشباب الذين تولوا التدريس في مدرسة النهضة المحمدية ـ وبعضهم كان كهلاً ـ من أولئك الذين كانوا يداومون الحضور إلى دروس الحاج محمد بالمسجد: حفظوا القرآن، كلاً أو بعضاً، ودرسوا بعض المتون أو أجزاء منها، مثل الآجرومية وابن عاشر وألفية ابن مالك ومختصر خليل... وعند افتتاح المدرسة نظم لهم الحاج محمد دروساً خاصة (تكوين المكونين). لقد كانت شخصية هذا الرجل ذات أثر عميق في نفوسهم وسلوكهم في مختلف المجالات، وفي مجال «العصامية» خاصة. كانوا يدرسون ليلاً ما سيُدرِّسون لتلامذتهم نهاراً. عتادهم بضع نسخ من كتب، بعضها مستنسخ باليد، ونسخة واحدة من قاموس **المنجد** يتداولونها بالتناوب. كانوا جميعاً، عند افتتاح المدرسة، دون مستوى الشهادة الابتدائية، ولكنهم، مع التدريس، فاقوا هذا المستوى. وقد برهنوا على ذلك عندما حصل تلامذتهم على تلك الشهادة بجدارة واقتدار بشهادة لجنة من العلماء، منهم من كان يحمل أعلى شهادة علمية في ذلك الوقت: «شهادة العالمية» من جامعة القرويين.

تلامذتهم أثناء التدريس الروح الوطنية المغربية ويجعلون أسماء زعمائها حاضرة، بتلقائية أو بتخطيط، ليس في دروس التاريخ والتربية الوطنية وحسب، بل وفي الدروس الأخرى أيضاً، كالنحو مثلاً. وإن صاحبنا ليذكر جيداً أن المعلم الذي كان يدرسهم النحو في الثالث الابتدائي قال لهم بالأمازيغية وهو يشرح إعراب الفاعل:

«إذا سألكم أحد كيف يعرب الفاعل فقولوا دائماً الفاعل مرفوع، حتى ولو كان الذي يسألكم هو الزعيم علال الفاسي». وكان ذكر علال الفاسي ينطوي على معنى، ويذكر صاحبنا جيداً أنه هو وزملاءه فهموا ذلك المعنى في حينه، وكان منهم من تبسَّمْ... أما مدرس المحفوظات والنصوص الأدبية فلم يكن يكتفي باختيار القصائد ذات النزعة الوطنية بل لقد اكتسب القدرة على قرض الشعر وكان يقرأ على التلاميذ بعض القصائد التي كان ينظمها في المناسبات الوطنية. وقد استطاع هذا العصامي، على طريقة الحاج محمد، أن يرتقي بنفسه ليصبح أستاذاً للغة والأدب في المدارس الثانوية بالدار البيضاء، بعد أن اجتاز بنجاح مختلف الامتحانات التأهيلية الضرورية.

وإلى جانب ذلك كله كان هؤلاء المعلمون العصاميون، الذين لم يعرفوا في حياتهم سوى المسيد وحلقة المسجد، يبذلون قصارى جهدهم في التزام النظام في تدريسهم والتقيد ببرنامج الدروس وعناصرها كما هي مسطرة في تعليمات وزارة المعارف، وذلك إلى درجة «الزائد على الحد» أحياناً. وفي هذا الصدد يذكر صاحبنا أن مدرس الإنشاء، في الرابع الابتدائي، كان يحرص على تتبع البرنامج المقرر تتبعاً حرفياً كما هو موزع، على الأسابيع والشهور، على ورقة معلقة على الجدار قريباً من مكتب الأستاذ. ففي أول حصة للإنشاء كان الموضوع المقرر للواجب الأسبوعي هو: القلم. فطلب المعلم من التلاميذ أن يكتبوا إنشاء بعنوان «القلم» ففعلوا. وفي الأسبوع الموالي طلب منهم أن يكتبوا موضوعاً بعنوان: «لونه»، وفي الذي يليه كان الموضوع المطلوب: «طوله». وبطبيعة الحال احتار التلاميذ وتخبطوا وشكوا حالهم إلى الأستاذ الذي أكد لهم أن ذلك مكتوب في البرنامج. وبعد أخذ ورد تبين لهم وللأستاذ أن الأمر يتعلق بموضوع واحد هو «القلم»، وأن ما هو منصوص عليه بعده بين قوسين هو عناصره المطلوب التركيز عليها. ومنذ ذلك الوقت استقام درس الإنشاء، وتعلم التلاميذ وتعلم الأستاذ كيف يميزون في البرنامج المقرر بين الموضوع وعناصره.

أما معلم الحساب فقد كان يتميز بوداعة وتفان نادري المثال. لقد كان من قصر «الوداغير»، فكان عليه أن يقطع على رجليه، رغم ضعف بنيته، عدة كيلومترات كل يوم، تقريباً، قبل أن يصل إلى المدرسة. لقد درس في المدارس الفرنسية وحصل على الشهادة الابتدائية ثم درس في القسم التكميلي، ثم «تخصص» في تدريس الحساب في مدرسة النهضة المحمدية. كان يشرح القواعد بالعربية والأمازيغية ويدرب التلاميذ على بعض التطبيقات على السبورة ثم يملي عليهم عدداً هائلاً من التمارين كان يترجمها ترجمة فورية من الفرنسية. وكان الوقت الذي تستغرقه الترجمة والإملاء كافياً لصاحبنا ولآخرين لحل التمارين والمسائل الحسابية بمجرد انتهاء الأستاذ من إملائها فينوه بهم ويملي عليهم تمارين إضافية.

ولم يكن مدرس الفرنسية بأقل من زملائه في التفاني في أداء مهمته. لقد كان شديد الحرص إلى درجة الهوس على تعليم النطق السليم للتلاميذ، يُعنَى عناية خاصة بأداء الحرف والمقطع والكلمة أداء سليماً فصيحاً. وكان يبذل في ذلك وقتاً ومجهوداً مع بعض التلاميذ الذين لم يكونوا قد تدربوا على تعديل مخارج الحروف التي اعتادوا عليها بالأمازيغية، وقتاً ومجهوداً لا يقدر على بذلهما إلا من رزق صبر أيوب. وبالفعل، كان هذا الرجل صبوراً وديعاً، بريئاً براءة الأطفال. وقد انتهت به الأقدار إلى أن التحق بعمالة الدار البيضاء خطاطاً في قسم جوازات السفر حيث قضى نحو ربع قرن راضياً بمرتب زهيد، مستور الحال، طيب السريرة عزيز النفس.

أما الحاج محمد فرج مدير المدرسة فكان يدرس التاريخ والجغرافيا والبلاغة لقسم الشهادة وللقسم التكميلي الذي أنشأه بعدها، وكانت له قدرة فائقة على التبليغ، يستعمل وسائل البيان والإيضاح الكلامية منها والحسية المادية. ولا يزال صاحبنا يذكر كيف أن بعض التلاميذ لم يستوعبوا درس الجغرافيا، الذي كان حول النظام الشمسي وتعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس، إذ عسر عليهم فهم كيف أن تعاقب الليل والنهار يرجع إلى دوران الأرض حول الشمس وليس العكس، أي خلافاً لما تدل عليه المشاهدة العامية ولما اعتاد الناس اعتقاده، فما كان من الحاج محمد إلا أن أوقف الدرس وبعث تلميذاً لإحضار خذروف ومصباح يعمل بالبطارية. ولما أحضر التلميذ ما طلب منه دعا الحاج محمد التلاميذ إلى الدرس من جديد وأغلق باب حجرة الدرس ونوافذها ودعاهم ليتَحلَّقوا حوله، فقذف الخذروف بخيط على الأرض، فأخذت تدور، ثم سلط عليها ضوء المصباح عبر قناة من قصب، فارتسم الضوء على جانب الخذروف المقابل للمصباح وبقي الجانب

الآخر مظلماً، فكان ذلك أبلغ بيان لهذه الظاهرة الطبيعية، ظاهرة تعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس. أما القسم التكميلي فقد كان الحاج محمد يتولى تدريسه البلاغة والألفية ومختصر خليل ونصوصاً أخرى، هذا إلى جانب عمله كمدير للمدرسة وعميد للحركة الوطنية في المدينة.

كان هناك إلى جانب المعلمين الذين أشرنا إليهم معلم آخر كان يأتي من مدينة وجدة، بين آونة وأخرى. كان من طلاب القرويين وعلى معرفة بالشعر والأدب. وكان «عصرياً» في هندامه وسلوكه وقد شد التلاميذ إليه بطريقته في الإلقاء والقراءة: إلقاء الدرس وقراءة الشعر. ثم استقدم الحاج محمد أستاذاً آخر من خريجي القرويين، وكان أديباً شاعراً درّس للتلاميذ في قسم الشهادة والقسم التكميلي «عيون» الشعر العربي، من معلقات شعراء الجاهلية إلى قصائد للمتنبي... وشوقي... وكان هو الآخر «عصرياً» في إلقائه وطريقة شرحه للنصوص. وقد مكث سنوات في فجيج ساهم خلالها في تكوين الأجيال الأولى من التلاميذ فيها، في اللغة والأدب العربي بخاصة.

ومن الشخصيات التي زارت المدرسة وتركت انطباعاً خاصاً لدى تلامذتها الأستاذ أحمد بنسودة، الذي كان يومذاك أحد العناصر القيادية في حزب الشورى والاستقلال، المنافس لحزب الاستقلال. إن صاحبنا لا يزال يتذكر هو وزملاؤه كيف دخل عليهم ذات صباح في زي عصري بدون طربوش. كان رشيق القوام رخيم الصوت وقد وجد التلاميذ في حصة التلاوة وكانوا يقرأون بلهجتهم «القروية» ولم يكونوا قد اعتادوا قبل ذلك اللهجة «الحضرية». أخذ الأستاذ أحمد بنسودة مكان المعلم وطفق يدرب التلاميذ على القراءة «العصرية» للنصوص، بما تتميز به من تغيير وتيرة الإصاتة بحسب المعنى. وكان أكثر ما شد انتباه التلاميذ طريقته في نطق حرف الراء (ممزوجة بالغين على طريقة أهل فاس)، ولا زال صاحبنا يتذكر كيف أن التلاميذ بقوا لعدة أيام يحاولون تقليد طريقة نطقه لكلمة «فراشة» التي تكررت في الدرس مراراً. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي استمعوا فيها إلى هذا النوع من النطق بحرف «الراء». وقد حاول أحدهم تقليد الأستاذ أحمد بنسودة فنطق الراء غيناً كاملة واضحة فصارت الفراشة المسكينة «فغاشة»، وتحمل التلميذ وزر هذا التقليد لبعض الوقت، إذ صار زملاؤه ينادونه بهذا الاسم الغريب. أما طريقته في النطق

تحدثنا عن عصامية مدير المدرسة ومعلميها في مجال التحصيل والتدريس. غير أن الصورة ستبقى ناقصة إذا نحن لم نشر إلى أنه كان على هؤلاء المعلمين أن يواصلوا «العمل» الذي كان يتطلبه العيش آنذاك في تلك الواحة، والذي كانوا يقومون به قبل افتتاح المدرسة وبعده، مثلهم في ذلك مثل جميع الرجال، شباباً وكهولاً ـ وشيوخاً أحياناً ـ لتحصيل لقمة العيش. ذلك أن هؤلاء المعلمين كانوا يعملون في المدرسة متطوعين إلا ما كان من دريهمات رمزية يمدهم بها الحاج محمد مما كانت لجنة الأربعين تجمعه من تبرعات محدودة جداً. أما التلاميذ فلم يكونوا يؤدون أية رسوم أو واجبات.

كان اقتصاد المدينة يقوم على نوع من الاكتفاء الذاتي في المواد الغذائية الأساسية. كان لكل أسرة بستان واحد أو أكثر في ضواحي المدينة، تتراوح مساحة الواحد ما بين ٥٠٠ متر مربع و٤٠٠٠ متر مربع كحد أقصى. كانت هذه البساتين تزرع قمحاً وشعيراً وبرسيماً للحيوانات مع مساحة للخضر المستهلكة منزلياً، وعلى جوانب البستان أصناف من النخيل المثمر. لم يكن أهل البلد يستعملون الحيوانات في الحرث، بل كانوا يقلبون الأرض بأيديهم بواسطة المناقيش وبطريقة تعاونية (اليوم يحرث الرجل وأصدقاؤه وجيرانه في بستان أحدهم وغداً أو بعد غد ينتقلون إلى بستان غيره). كانت الغراسة في هذه البساتين تتطلب عناية خاصة: سقي المزروعات دورياً، من ماء تزادرت المرتفع الثمن، وبالتالي السقي بمقدار والحرص الشديد على تجنب ضياع الماء، كما كان لا بد من تتبع الأعشاب الضارة وانتزاعها من جذورها وإطعام الحيوانات بها وكان لا بد من تغذية المزروعات بالسماد، ولم يكن هناك فوسفات أو ما يشبه الفوسفات وإنما هو روث الحيوانات المنزلية وما تجمع في المراحيض...

وإضافة إلى أشغال البستنة هذه كان لا بد من الاحتطاب من حين لآخر من الوديان ومواطن العرعار والدفلى في البادية، إذ لم يكن الحطب الذي يجمع من نخيل البساتين يكفي. كان الوقود المستعمل في المنزل صباح مساء هو الحطب، ولا شيء غير الحطب. فكان على الشباب إذن أن يحتطب مرة أو مرتين في الشهر من أماكن بعيدة: يخرجون في مجموعات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مع منتصف الليل أو بعده بقليل، راكبين دوابهم (الحمير والبغال أساساً) ليعودوا في المساء مع غروب

وكان الحطب يخزن لفصل الشتاء خاصة، حين يكون الاحتطاب صعباً وشاقاً بسبب البرد القارس الذي تعرفه الصحراء في هذا الفصل. وإلى جانب أشغال البستنة والاحتطاب كانت هناك أشغال موسمية تتطلب مغالبة الزمن فيها، مثل الحصاد ودرس الحبوب وجني غلة التمر، وهي أشغال تتطلب تعاون شبان الحي ورجاله، يوم مع هذا ويوم مع ذاك. لم تكن هناك آلات، بل كانت جميع الأعمال تتم يدوياً فكان لا بد من التعاون والتكافل.

كانت الأشغال التي ذكرنا واجبة على كل فرد صغيراً كان أو كبيراً. وكان معظمها يتم في الصباح الباكر مما يترك الوقت لمن هم في حاجة إليه. ولم يكن معلمو المدرسة وحدهم يقومون بنصيبهم من هذه الأعمال، بل لقد كان على تلاميذهم أيضاً أن يساهموا فيها بنصيب، خاصة في ساعات الفراغ وأيام العطل. والمساهمة في «الإنتاج» كل حسب طاقته، كانت واجباً على الفرد منذ نعومة أظفاره: الولد مع أبيه أو اخوته يعمل في البستان ويحتطب الخ... والبنت في البيت مع أمها تغزل أو تجلب الماء من السواقي وتساهم في إعداد الطعام.

كان صاحبنا وزملاؤه، تلاميذ الفوج الأول، من «الشباب المخضرم» الذي مارس الأعمال المذكورة كلها ـ بدون استثناء ـ خلال مرحلة المسيد ومرحلة المدرسة. كان الواحد منهم، بمقدار ما يكبر في جسمه وسنه، تكبر الأعمال التي كان عليه أن يقوم بها مساهمة في «الإنتاج» وتحقيق الاكتفاء الذاتي للعائلة. كان صاحبنا، زمن طفولته الأولى، يرافق جده لأمه إلى البستان مرافقة «سياحية»، إذ لم يكن يطلب منه القيام بشيء ذي بال لصغر سنه، ولكن ما إن انتقل إلى منزل أهله من أبيه في السابعة من عمره حتى بدأ يرافق جده أو عمه إلى البستان للمساهمة في سقي الزرع وقص البرسيم وانتزاع الأعشاب ونقل «السماد» إلى البستان في زنبيل على الحمار وذره على الزرع فضلاً عن المساهمة في الحصاد وجني التمر عند حلول موسميهما.

لم يكن الأطفال يرتاحون إلى جميع هذه الأعمال، فلقد كان منها ما يبعث على الضجر مع التعب والمشقة مثل «الحصر» حين سقي الزرع أيام البرد القارس في فصل الشتاء. كانت مساحة البساتين تقسم إلى مستطيلات، في نحو متر واحد عرضاً وثلاثة أمتار طولاً، (تسمى «إيمونن، ج. أيمون أو «أكمون» بالجيم المصرية)، تفصل بينها سواقي متوازية تسقيها من جهة العرض. وبما أن استعمال الماء كان

بمقدار، لندرته وارتفاع ثمنه، فلقد كان السقي يتطلب تعاون شخصين: أحدهما يشرف على دخول الماء إلى «الكمون» والثاني «يحصر»، أي يقف داخل «الكمون»، على بعد متر أو نحوه من نهايته، حافي القدمين ينتظر وصول الماء، حتى إذا أحس به في رجليه صاح: «احصر»، فيحصر الشخص الأول الماء عن ذلك «الكمون» ويصرفه إلى التالي فينتقل «الحاصر» إليه بدوره، تاركاً الماء في «الكمون» السابق ينساب بقوة الدفع التي تذهب به إلى نهايته وهكذا... كانت عملية «الحصر» هذه من مهمة الأطفال، في الغالب، وكانت أكره شغل عند صاحبنا خصوصاً أيام البرد القارس. فالسقي يكون عادة في الصباح الباكر قبل شمس الضحى حتى لا يتبخر الماء. والزرع في ذلك الوقت يكون في برودة الثلج مع صقيع في الغالب، والماء نفسه بالغ البرودة لأنه من الصهريج العاري، والمهمة تقتضي أن يكون «الحاصر» حافي القدمين، وعاري الساقين إلى الركبة تقريباً حسب ارتفاع الزرع، لذلك كانت الأقدام تصاب بشقوق مؤلمة تسمى «إدرا» ولم يكن ينفع معها دواء لتكرار سبب الداء...

كانت مهمة «الحصر» من الأعمال الأولى التي يبدأ بها الطفل حياته العملية في مساعدة الأب أو الجد في أشغال البستنة، حتى إذا بلغ العاشرة أو نحوها استقل ببعض الأشغال وكان ذلك حال صاحبنا. وهكذا، فما إن بلغ العاشرة من عمره حتى بدأ يستقل ببعض الأشغال ويتولى تزويد المنزل بالحطب من الوديان وسهول الأعشاب الصحراوية رفقة بعض أبناء الحي من أصدقائه في المدرسة. كانوا أربعة أو خمسة يراجعون دروسهم معاً في منزل أحدهم بالتناوب، وفي منزل صاحبنا غالباً، ويقومون بـ «رحلات» جماعية للاحتطاب، كل على دابته، بين الفينة والأخرى. وباختصار كانت واجباتهم صنفان: واجبات فكرية نحو المدرسة، وواجبات يدوية نحو المنزل. لم يكن العمل الفكري عندهم مفصولاً عن العمل اليدوي ولا كان يعفي صاحبه منه.

ـ ٤ ـ

لقد تحدثنا عن «العمل اليدوي» من أجل المنزل، فلنقل كلمة عن «العمل الفكري» في المنزل من أجل المدرسة. كان صاحبنا وأصدقاؤه الأربعة يراجعون دروسهم سوياً كما ذكرنا. وبما أن المدينة لم تكن مزودة بالكهرباء فلقد كان عليهم أن يقرأوا ليلاً على ضوء قنديل الزيت أو مصباح الكاربون، وأحياناً لم يكن يتوفر

يستقيم ضوءه إلا ليقع فيه عطب فينطفىء. فكان صاحبنا وأصدقاؤه يستعملون في أوقات العطب مصابيح صغيرة تشتغل بالبطاريات.

وبما أنهم لم يكونوا يتوفرون على ما يكفي من النقود للحصول على ما يحتاجون إليه من البطاريات فقد خطر لصاحبنا وأحد أصدقائه أن يعملا على «اختراع» المادة التي تشحن بها البطارية. وهكذا قضيا ساعات طوال لمدة شهور في «البحث والتجربة» يطبخون الملح والفحم ومواد أخرى أملاً في اكتشاف سر البطارية. غير أن نتائج «تجاربهم» لم تكن بأحسن حظاً من تجارب الكيميائيين القدماء، الذين كانوا يطمحون إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. غير أن صديق صاحبنا استمر في تجاربه، يستأنفها من حين لآخر، إلى أن توصل في نهاية الأمر إلى بعث نوع من الحياة في البطاريات الميتة، ولكن بطريقة بدائية غير عملية.

ومن التجارب التي أنفق فيها صاحبنا وصديقه وقتاً طويلاً خلال العطل المدرسية خاصة، تلك التي كانا يهدفان من ورائها إلى «اكتشاف» النفط بالحفر في مناطق في الجبل، كان الأطفال يشمون فيها رائحة النفط. لقد قضيا أياماً ولياليَ في «طبخ» و «تقطير» التراب «النفطي» الذي كانوا يأتون به إلى منازلهم، ولكن دون جدوى. غير أنهما تمكنا أخيراً من الحصول على مسحوق لزج كان إذا مزج بالفحم العادي ـ المصنوع من الحطب ـ يعطي حرارة متوهجة أشبه بحرارة الفحم الحجري. غير أن ما كانا يحرقانه من فحم وحطب من أجل الحصول على هذا المسحوق كان يكلفهم غالياً.

كانت هذه الأنشطة «الاستكشافية» تدخل ـ في تصور صاحبنا وصديقه ـ ضمن تطبيقات «دروس الأشياء» التي كان التلاميذ يتلقونها في المدرسة أو يطلعون عليها في الكتب التي نادراً ما كانت تقع عليها أيديهم. فلقد كانت المدينة بقصورها السبعة خالية من المكتبات، إذ لم تكن الكتب مما يباع في هذا البلد آنذاك. ولكن الحاج محمد، مدير المدرسة، أحضر معه عند عودته ذات مرة من إحدى سفراته إلى الرباط وفاس كمية من الكتب باعها للمعلمين والتلاميذ. ويذكر صاحبنا جيداً كيف أنه وقف واجماً أمام مكتب المدير والتلاميذ يشترون الكتب، فالتفت إليه الحاج محمد وقال له: «وأنت؟ ألا تشتري كتاباً وأبوك يبذر الأموال في وجدة، ذات اليمين وذات الشمال؟»

شعر صاحبنا بنوع من الحرج والإهانة. كان أبوه في وجدة فعلاً. ولم يكن يجرؤ على طلب النقود من جده لأمه ولا من جده لأبيه. أما الأول فلم يكن من المتحمسين للمدرسة ولا للحاج محمد كما ذكرنا، وأما الثاني فلم يكن أحد في العائلة يجرؤ على طلب النقود منه، وهكذا «اضطر» صاحبنا إلى أن يأخذ ورقة من فئة ألف فرنك مما كان جده لأمه يوفره من إرساليات ابنه من الجزائر. ذهب صاحبنا إلى المدير بالنقود واشترى بهما كتابين، أحدهما علمي لا يذكر عنوانه، والثاني هو كتاب **الأخلاق للمدارس الثانوية** من تأليف أحمد أمين وأمين مرسي قنديل (طبعة ١٩٤٥). ومن غريب الأمور أن يكون هذا الكتاب، الذي هو أول كتاب اقتناه صاحبنا، هو ثاني كتابين، لا غير، بقيا عنده إلى اليوم من مكتبته الأولى التي اضطر إلى بيعها للاستعانة بثمنها في توفير سعر التذكرة على الباخرة إلى سورية التي التحق بها للدراسة الجامعية كما سنذكر فيما بعد. أما الكتاب الثاني فهو نسخة مصرية من **كليلة ودمنة** بتحقيق محمد المرصفي (وما زال الكتابان يحملان على بعض صفحاتهما الطابع الذي كان صاحبنا يضعه على ما يقتنيه من كتب، وكان قد صنعه له أحد صانعي الطوابع في الدار البيضاء سنة ١٩٥٢: على محيط الطابع من أعلى عبارة «خزانة كتب» ثم «محمد العابد الجابري» في الأسفل. أما وسطه فقد كان دائرة نقشت فيها عبارة «اقرأ ما دمت حياً»).

كتاب **الأخلاق** يدفع ثمنه من فلوس أخذها من غير إذن؟

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي مد فيها صاحبنا يده إلى النقود أو غيرها من دون إذن. وما زال يتذكر كيف أن هذا الكتاب كان يبعث في نفسه نوعاً من وخز الضمير كلما وقعت عليه عيناه. ومع أنه كان يداوم القراءة فيه محاولاً استيعاب مضمونه فلقد كان يشعر إزاءه، كلما مد يده إليه، بنوع من التناقض الوجداني، شبيه بذلك الذي ينتاب المرء إزاء شيء عزيز عليه ويشعر في الوقت نفسه بنوع من الرغبة التي يعبر عنها بـ «ليته ما كان...». وعلى كل حال فلقد عاش صاحبنا أياماً معذب الضمير: كيف سمح لنفسه أن يأخذ النقود بدون إذن؟ إنه إذن سارق؟ ولكن هل من يأخذ من نقود أبيه أو جده يعد سارقاً حقاً؟ ثم هل كان يليق به أن يتلقى «إهانة» المدير من دون أن يبرهن له على أنه لا يستحقها؟ وهكذا لم يهدأ له بال إلا عندما علم ـ سماعاً أو قراءة، لا يتذكر بالضبط ـ أن أخذ الكتب بغير إذن أصحابها، بغرض الانتفاع بها، لا يعد سرقة وإن أخذ الابن من مال أهله بغير إذنهم ليس سرقة.

ولم يكن هذا القلق بل هذا الخوف من ان يكون قد ارتكب جريمة «السرقة» راجعاً فقط إلى كونه قد تعلم منذ الصغر أن الذي يسرق أو يخالف أوامر والديه يرتكب معصية، بل أيضاً لأنه قد ترسخ في وعيه منذ الصبا من خلال أحاديث جدته، التي كان يستمع إليها بانتباه أثناء طفولته الأولى أن «العاصي» يكوى يوم القيامة بـ «سفود» (قضيب من حديد) يحمى في النار حتى يحمر ويتوهج. وكان يتصور، لمدة طويلة، أن معنى عبارة «شُواظ من نار» الواردة في القرآن هو هذا «السفود» الذي يحمى في النار والذي يكون أشد حرارة وأكثر إيلاماً من القضبان الحديدية التي تكوى بها الجمال فترسل صراخاً ترتج له الجدران ويتردد صداه بعيداً في الجبال والوديان.

ثلاثة كتب، أو أربعة على الأكثر، إضافة إلى كتاب التلاوة وكتاب الجغرافيا المقررين على قسم الشهادة الابتدائية هو كل ما تداولته يد صاحبنا في المرحلة الابتدائية. فلم يكن هناك قصص للأطفال ولا كتب إضافية مقررة ولا خزانة عامة ولا مكتبات تبيع الكتب أو تعيرها. ولم تكن هناك إذاعة ولا أجهزة راديو. وصاحبنا متأكد من أنه لم يسمع الإذاعة لأول مرة إلا عندما قدم إلى وجدة سنة ١٩٤٧. وإذن فلم تكن هناك وسائل تثقيف إضافية، ولذلك كان التلاميذ يجدون من الوقت ما يكفي لقراءة وإعادة قراءة ما يعطى لهم في المدرسة من دروس أو ما يقع بين أيديهم من نصوص. ويذكر صاحبنا أنه خلال هذه المرحلة، مرحلة الشهادة الابتدائية والقسم التكميلي، كان هو وزملاؤه يحفظون معظم سور القرآن وبعض الأحاديث وقصائد أو أبيات من شعراء العصر الجاهلي والعصر العباسي والعصر الحديث، إضافة إلى أجزاء من ألفية ابن مالك ومختصر خليل.

ويذكر صاحبنا ـ ولعل هذا ما كان ينفرد به، على الأقل كما كان يخيل إليه ـ أنه كان كثير الكتابة في منزله، لقد سود أكواماً من الأوراق والدفاتر. وإذا كان لا يستطيع الآن تذكر الدوافع التي كانت تدفعه إلى الكتابة بنهم، ولا أن يفسر تلك الميول نحو الكتابة، فإنه يتذكر جيداً أنه كان يكتب موضوعات في الإنشاء يختارها بنفسه ويكتب «مذكرات»، و «مقالات»، ويحاول قرض الشعر مستعيناً بقاموس المنجد للحصول على القافية المطلوبة. ولكنه لا يتذكر أنه كان يتطلع إلى أن يصبح كاتباً عندما يكبر. إن مثل هذه التطلعات لم تظهر عنده إلا في مرحلة لاحقة، عندما كان في المرحلة الثانوية يتمنى أن يصبح في المستقبل مختصاً في التحليل النفسي، على الرغم من أنه لم تكن لديه آنذاك فكرة واضحة عن هذا «العلم».

وفي المقابل يتذكر أنه كان يقضي ساعات طويلة محاولاً قراءة وفهم ما كانت دار جده لأمه تتوفر عليه من مخطوطات، ولكن دون جدوى. إنه لم يكن يستطيع أن يتبين فيها أي شيء إذ كان كثير منها مكتوباً بدون نقط وبكلام لا ينتمي إلى الفقه ولا إلى النحو ولا إلى أي علم من العلوم التي كان يدرسها في المدرسة. وأشد ما كان يثير دهشته وحيرته تلك الجداول التي كانت تتخلل صفحات هذه المخطوطات على شكل مربعات شبيهة بمربعات «الكلمات المتقاطعة» التي تنشرها الصحف اليوم، وفي كل مربع حرف أو رقم. ولم يدرك صاحبنا أن الأمر يتعلق بكتب في «السحر والعزائم» إلا في مرحلة لاحقة.

فعلاً، لقد كان لجده لأمه أخوان، أحدهما كان يعتبر «ضالاً»، نوعاً ما، لأنه كان يدخن السجائر ولم يكن يحفظ القرآن ولا كان يعمل في البستان. لقد كان يقضي كل وقته مع بعض أصدقائه في «مجمع» صغير خاص بهم.. أما الثاني فقد كان لا يغادر المنزل إلا نادراً، يقضي النهار كله في غرفته بأرضية المنزل تتردد عليه النساء، بعضهن منفردات وبعضهن معهن أولادهن الصغار. لقد كن يأتينه لـ «يكتب» لهن «حروزاً» أي تمائم. هذه تريده لنفسها كي تنجب، وهذه تريده لابنها ليشفى من مرض، وثالثة تريده كي يزيل عنها ما تعانيه من «كراهية» زوجها، أي إعراضه عنها الخ... ولم تكن النساء يدفعن نقوداً مقابل هذا النوع من «العلاج»، فالنقود كانت نادرة التداول، وإنما كن يضعن في مكان مجاور، قريباً من زوجة الفقيه ما تيسر من «البروك»: وعاء من السمن أو نحو مُدّين من الحبوب أو التمر. هذه الممارسات لم تكن تعجب جد صاحبنا لأمه. لقد كان يعتبرها عملاً لا يليق بفقيه مثله يحفظ القرآن ويعبد الله ويتوكل عليه وحده. وإذا ما انتابه قلق أو غضب أو ملل التجأ إلى ضريح جده سيدي عبد الجبار حيث يقضي أياماً في خلوة تامة عند أولاد عمومته هناك. يعود بعدها منشرح الصدر عادي المزاج.

ـ ٥ ـ

هناك حادثة بقي مشهدها ماثلاً في ذاكرة صاحبنا يثبت حضوره فيها بين الفينة والأخرى. كان الوقت ليلاً بعد العشاء بنحو ساعة أو ساعتين، وكان يومها في منزل أهله لأمه، وكانت زوجة خاله نائمة في غرفتها التي تقع في زاوية دهليز واسع نسبياً، وكانت وحدها لأن زوجها كان مسافراً. أما جدته لأمه التي فقدت بصرها منذ وقت طويل فكانت جالسة على فراش نومها في الجانب الآخر من

جامعة ساقيها الواحد عكس اتجاه الآخر واضعة يديها على ركبتيها... وكان في الجانب المقابل لها زوجها ـ جد صاحبنا لأمه ـ الذي لم تكن تكلمه ولم يكن يكلمها إلاّ نادراً، إذ كانا في خصومة دائمة، فكانا إذا اضطر أحدهما لقول شيء للآخر فعل ذلك بواسطة صاحبنا: «قل لجدك...»، «قل لجدتك...».

كان جد صاحبنا يعاني من مرض طال أمده لم ينفع فيه علاج: لا الأعشاب الصحراوية، ولا حتى دواء الطبيب الفرنسي الذي كان رئيساً لمستوصف بمركز المدينة والذي كان يأتي خصيصاً إلى جد صاحبنا لأن المرض الرئيسي في المستوصف كان قريباً له. كان الولد يلازم جده في هذه الفترة التي ستقع فيها الواقعة التي نحن بصددها، فكان يقوم له بدور الممرض، لأنه كان لا يقوى على النهوض، ولا كان يطمئن لأحد غيره، فكان صاحبنا يجلس بجانبه عند عودته من المدرسة يحفظ دروسه ويقوم بواجباته المدرسية...

في تلك الليلة إذن، وبينما كان صاحبنا مستلقياً على الفراش ويده اليسرى مشتبكة بإحدى يدي جده، بينما يده اليمنى تمسك بكتاب الجغرافيا (جغرافيا المغرب لأقسام الشهادة الابتدائية) يراجع فيه على ضوء مصباح زيتي معلق على الجدار قريباً منه، إذا بجده يرسل شخيراً لفت انتباهه لقوته وغرابته، ولكنه استمر في المطالعة معتقداً أن جده قد استغرق في النوم، متجنباً القيام بأية حركة حتى لا يعكر عليه صفو نومه... ومرت بضع دقائق ساد فيها هدوء غير مألوف لم يقطعه إلا صوت جدته: «محمد.. حرك جدك قليلاً».

أراد صاحبنا أن يتحاشى إزعاج جده فلم يسحب يده اليسرى من تحت يده بل ألقى بالكتاب جانباً واستدار بهدوء ليضع يده اليمنى على كتف جده، ثم أخذ يحركه برفق.. ولكن لا حراك. سحب يده اليسرى من تحت يد جده.. ولكن لا حراك. عندها أجاب صاحبنا جدته بنغمة فيها نوع من الاستغراب الممزوج بالقلق: «إنه لا يتحرك..» فردت عليه: «لقد عرفت ذلك من شخيره.. إنه مات». ثم انطلقت في النحيب، تبكي... تبكي حظها وتبكي زوجها. تبكي بكاء يتخلله كلام إلى صاحبنا تطلب منه أن يفعل كذا، أو كذا.. أن ينام الآن.. لتوقظه عند الفجر ليذهب لإخبار أمه (التي كانت عند زوجها في حي آخر) وإخبار أفراد آخرين من العائلة.

أما صاحبنا فلا يتذكر أنه بكى في ذلك الوقت ولا يستطيع أن يستعيد الآن

في وجدانه ما كان يعتريه من شعور آنذاك.. كل ما يتذكر هو أنه غطى جثة جده كما طلبت منه جدته وأخذ كتابه وأوراقه ووضعها جانباً.. ثم لا شيء بعد ذلك.

وفي الصباح الباكر بعثته أمه وجدته لإخبار العائلة ينتقل من منزل إلى منزل، في قصر زناكة أولاً، ثم صعد إلى قصر «المعيز» لإخبار الأقارب من حفدة سيدي عبد الجبار. وعند رجوعه عرج على السوق، في الحي الإداري، واشترى نحو ثلاثة كيلو من اللحم كما طلبت منه أمه وجدته ذلك. وضع اللحم في حجر عباءته ولفها عليه وقفل راجعاً. وعندما نزل عقبة «أزرو» الهابطة إلى زناكة التقى بعدد من الرجال كانوا عائدين من بساتينهم، فكان كل منهم يسأله أين كان، وأين هو ذاهب، وماذا حدث؟.. لقد كانوا يعرفونه وكان يعرفهم، والناس في كل قصر يعرف بعضهم بعضاً... كان كل منهم يعبّر، كل على طريقته، عن أسفه على وفاة الحاج محمد أولحاج، وكان منهم من أجهش بالبكاء... وحينئذ فقط تنبه صاحبنا إلى أنه لا يبكي، ولا دموع في عينيه، فبللهما بلعابه... وعاد إلى المنزل. أما ما جرى بعد ذلك فلا تسعفه ذاكرته بشيء محدد.

* * *

لا شك أن قارىء هذه السطور يعتريه شيء من الانفعال، شيء من الشعور بالمأساة أو بما يشبه المأساة: طفل في الثالثة عشرة من عمره يراجع دروسه ليلاً، على ضوء قنديل مستلقياً على الفراش بجانب جده المريض ويده مشتبكة مع يده... ثم يأتي الموت بكل هدوء، بكل مكر الهدوء، ليختطف روح جده دون أن يستطيع هذا الأخير حراكاً ولا دفاعاً سوى شخير كشخير النائم، يودع به الحياة. لا، إن ذلك الطفل يشعر الآن، أو يتخيل، أن جده شد على يده بقوة، إشارة وداع، قبل أن يغادر الحياة... تماماً كما فعل أبوه، ساعة قبيل وفاته في مستشفى الدار البيضاء، بعد ذلك باثنتين وثلاثين سنة (١٩٨١).

كانت وفاة أبيه في ظروف غير «طبيعية»، وبسرعة غادرة، على اثر عملية جراحية، وفي جو «خال» من المأساة. وهل تعرف المستشفيات معنى المأساة مقترناً بالموت؟ أليس الموت فيها مجرد وضع علامة على ورقة، علامة تسمح، بل تأمر بنقل «المريض» من سرير إلى آخر ليستمر العمل «طبيعياً» كالعادة؟ أليس الموت شأناً عادياً تماماً في المستشفى؟

أجل إن الوضع يختلف تماماً. لقد كان معنى المأساة هو الغالب على واقعة وفاة

جده لأمه. ولم يكن الموت، كموت، هو عين المأساة. كلا، إن قلب المأساة كان في المشهد الذي حدث فيه. فعلاوة على الطفل ودروس الجغرافيا والاستعداد لامتحان الشهادة الابتدائية، كانت هناك على مقربة من مكان «الواقعة» التي وقعت تحت جنح الظلام، على مرأى من قنديل زيت يستهلك دموعه في صمت مريب، امرأة جالسة مسنة فاقدة البصر، تبكي زوجها الذي قضت معه ما يزيد عن ستين حولاً، والذي لم تعد تكلمه منذ سنوات، تبكيه صراخاً ونحيباً ورثاء وكأنها تنتقم من ذلك الصمت المتبادل الذي كان هو الشيء الوحيد الذي يصل بينهما في السنين الأخيرة. إن خصومة كبار السن تكون عادة كبيرة مثلهم، لا تعرف «خط الرجعة». ولِمَ «خط الرجعة» وخط الحياة قريب من نهايته..؟ بالفعل لقد بلغ خط حياتها، هي الأخرى، نهايته المحتومة بعد أقل من سنة، فالتحقت به صامتة وفي هدوء..

وعلى مسافة نحو كيلومتر من ذلك المشهد، الذي تحالف فيه الموت والخصومة والعناد على براءة طفل غارق في «الجغرافيا»، بعيداً عن «التاريخ»، كانت ترقد زوجة مع زوجها، في بيت مظلم، تعاني في يقظتها ومنامها من قسوة حماتها وفراق ابنها، وأيضاً من حب زوج طيب إلى أقصى حد، ولكنه في ذات الوقت ضعيف كل الضعف أمام أمه. زوجة كانت هي الأخرى مشدودة إلى زوجها متفهمة وضعيته فرضخت للأمر الواقع وأوصت ابنها ألا يزورها، خوفاً من حماتها وتجنباً لخلق المشاكل لزوجها، إلا مرة أو مرتين في الشهر، زيارة خفية خاطفة.

ولقارىء هذه السطور أن يفترض أن الكاتب يستعيد هنا نفس البطانة الوجدانية التي كانت تؤطر هذه الأحداث في ذاكرته عند وقوعها أو بعد ذلك بقليل.. غير أن صاحبنا يشعر تحت ضغط الرغبة في جعل شهادته أقرب ما يمكن إلى الواقع، يشعر أنه لا يستطيع أن يشهد بـ «الصحة» لهذا الافتراض. إنه يحس أنه سيكون أكثر إخلاصاً للحقيقة إذا هو نسب انفعالاته، وهو يكتب عن وفاة جده وسوء حظ أمه، إلى «الحاضر»، إلى لحظة الكتابة المندمجة مع استرجاع الذكرى في حيز زمني واحد. إنه يكاد يجزم أن الأمر يتعلق بانفعال «بعدي». غير أنه يشعر في الوقت نفسه أنه انفعال كان موجوداً منذ زمن الذكرى مقموعاً بصورة ما، فجاء «الحفر» في الذاكرة ليحرره، فانبعث ليسد ثغرة في الذكرى.

الفصل الرابع

ـ ١ ـ

كانت مدينة فجيج، في القرون الوسطى، إحدى البوابات الرئيسية التي يطل منها المغرب على الصحراء الكبرى. وكانت ترتبط بالطرق التجارية العالمية عبر شريط من الواحات تمتد جنوباً إلى بلاد السودان (مالي والسنغال حالياً) وشرقاً إلى مصر: طريق تمتد من فجيج إلى سجلماسة (تافيلالت) غرباً ثم إلى تامبوكتو ووسط غرب افريقية جنوباً، وطريق تتجه إلى توات على الجنوب حيث تتوزع الطرق نحو الشرق إلى فرعين: أحدهما يتجه إلى ورغلة ثم إلى تونس، والآخر إلى غدامس فطرابلس فمصر... كان ذلك في العصر الوسيط قبل تحول الطرق التجارية، عالمياً، عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى وهيمنة الملاحة الأوروبية على «ما وراء البحار».

ومع أن دور فجيج قد تضاءل بعد ذلك، مثلها مثل البوابات الصحراوية الأخرى، فإنها بقيت منفتحة على المراكز القريبة منها مثل تافيلالت غرباً وتوات جنوباً، إضافة إلى بوعرفة ووجدة وغيرهما من المدن المغربية شمالاً. ولم تبدأ هذه المدينة بالانكماش على نفسها إلا بعد احتلال فرنسا للجزائر ومد سيطرتها على جميع الفضاء الصحراوي المحيط بفجيج، شرقاً وجنوباً وغرباً. وهكذا حاصر الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومنذ الثلاثينات من القرن الماضي، مدينة فجيج من الشرق والجنوب والغرب، مقتطعاً منها امتداداتها إلى بشار والقنادسة وتوات...

وعبثاً حاولت السلطات الفرنسية في الجزائر الاستيلاء على مدينة فجيج في مستهل هذا القرن، حينما كانت تستعد لاحتلال المغرب. لقد قاوم الفجيجيون الهجمات الفرنسية مقاومة باسلة فردوا قوات الاحتلال على أعقابها. وعندما فرضت

فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢ حفظت لفجيج انتماءها للمغرب ولكن مع فرض حدود تطوقها وتفصلها عن الأراضي التي ضمتها فرنسا إلى مستعمرتها التي كانت تعتبرها أرضاً فرنسية (= الجزائر)، تاركة، في نفس الوقت، لأهالي فجيج نوعاً من حرية التنقل عبر هذه الحدود للحرث في «المعذر» ولخدمة واستغلال حقول النخيل، سواء على وادي زوزفانة شرقاً وجنوباً أو على وادي المليلس غرباً، الشيء الذي حُرموا منه بعد استقلال المغرب وقيام الثورة الجزائرية، إلى اليوم.

انكمشت مدينة فجيج إذن على نفسها منذ تحول الطرق التجارية في القرن السادس عشر وازدادت عزلتها بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠. غير أنها إذا كانت قد فقدت امتداداتها الوسيطية (نسبة إلى القرون الوسطى) فإنها بدأت مع فرض فرنسا حمايتها على المغرب سنة ١٩١٢ تنفتح تدريجياً على العالم الحديث وبالخصوص من خلال خطوط السكة الحديدية التي أقامتها السلطات الفرنسية في كل من الجزائر والمغرب، وبالأخص الخط الذي يربط بين وهران شمالاً وبشار جنوباً بالجزائر والذي يرتبط بالخط الذي يصل بشار ببوعرفة ثم بوجدة شمالاً. كان خط وهران ـ بشار يمر بمحاذاة خط الحدود الذي فرضته فرنسا بين المغرب والجزائر، وكانت محطة القطار بقرية بني ونيف المتصلة بحقول نخيل مدينة فجيج على الجنوب هي أقرب المنافذ التي تتصل بها هذه المدينة مع العالم الخارجي، مع بشار وعين الصفراء ومشربة وتلمسان ووهران بالجزائر، تماماً مثلما كانت قرية بوعرفة هي النقطة الرئيسية بل الوحيدة التي تصل فجيج بالمدن المغربية: وجدة شمالاً وبوذنيب ثم تافيلالت غرباً.

غير أن هذا الوضع الاستراتيجي الذي أضفته خطوط سكة الحديد على مدينة فجيج لم يكن له أثر يذكر على الحياة فيها، لا اقتصادياً ولا اجتماعياً ولا ثقافياً. فالخط الذي يمر جنوباً بمحاذاتها في قلب قرية بني ونيف كان يربط بشار والقنادسة ـ وهما مركزان معدنيان غنيان ـ بمدينة وهران، عاصمة الغرب الجزائري، تماماً مثلما أن الخط الذي يمر ببوعرفة كان يربط مناجم بشار بمناجم بوعرفة فجرادة بوجدة، عاصمة المغرب الشرقي. وبما أن مدينة فجيج نفسها لم تكن مركزاً منجمياً فلقد تركتها السلطات الفرنسية تجتر وضعيتها القديمة كواحة معزولة محاصرة مقصوصة الجناحين (جناح بشار والقنادسة غرباً وجناح توات وما يليها جنوباً وشرقاً).

شيء واحد استفادته مدينة فجيج من هذا الوضع الاستراتيجي الميت هو انفتاحها التدريجي على العالم الخارجي من خلال هجرة أبنائها للعمل في الجزائر، إما في مزارع المعمرين وإما في قطاع البناء والسدود والمناجم. هذا إضافة إلى تردد

المدينة من بضائع للاستهلاك المحلي، غير أن هذا الانفتاح الذي بدأ في أواخر العشرينات لم يأخذ في التوسع إلا مع نهاية الثلاثينات، وهو ما يتزامن مع مرحلة الطفولة الأولى لجيل صاحبنا. ومع ذلك فهو يستطيع أن يجزم، اعتماداً على معطيات ذاكرته وحدها، أن عدد أبناء قصر زناكة بفجيج ـ مسقط رأسه ـ الذين كانوا زمن طفولته الأولى في علاقة ما مع «الخارج» لم يكن يتعدى العشرة أو نحوها. لقد كان هذا القصر ـ زناكة ـ ينفرد، أو يكاد، بالاتصال مع المدن الجزائرية بهدف العمل وأحياناً بهدف التجارة، بينما كان قصر الوداغير يحتكر، أو يكاد (هو وقصر أولاد سليمان وقصر المعيز) الاتصال التجاري مع مدن المغرب، ووجدة بصورة خاصة.

ومع أن صاحبنا كان عضواً في جماعة أطفال «الرباط» كما ذكرنا، فإن فكرة «الرباط» لم تكن تعني في ذهن صاحبنا وأصدقائه شيئاً آخر غير تلك المباني والطرقات التي كانوا يشيدونها بالتراب والحجر، كما يشيد أطفال الشواطىء دوراً ومباني بالرمل والماء. أما اسم «بغداد» الذي أطلقه أهل زناكة على السهل الذي كانت توجد «الرباط» في بداياته فلم يكن يعني بالنسبة لأهل زناكة عموماً، صغاراً وكباراً، غير تلك الأرض المسطحة المفروشة بالحصى والممتدة شرق قصر زناكة والتي يشقها طريق أهل هذا القصر إلى وادي زوزفانة حيث حقول نخيلهم. على أنه كان لسهل «بغداد» وظيفة أخرى، موسمية هذه المرة، إذ كان يتحول إلى ميدان لمباريات كرة العصا ومصارعات «الباقباق» (ينقسم المتصارعون إلى فريقين يمسك كل اثنين منهم بيدي صاحبه بصورة تمكنهما من مصارعة الخصم بواسطة الضربات الانقضاضية بالأرجل). وكانت هاتان اللعبتان تتطلبان ميداناً فسيحاً فارغاً، وكانتا تشكلان قوام المصارعة الرياضية بالمدينة.

كانت هذه الرياضات، مثلها مثل الألعاب الجماعية الأخرى التي تحدثنا عنها في فصل سابق، تجري بين أبناء القصر الواحد، بين شباب «إزناين» وشباب «ادريت» بقصر زناكة، فلم تكن هناك مباريات بين القصور كلها، ولا بين أي منها والعالم الخارجي. كان الاكتفاء الذاتي ـ وإن شئت قلت الانكماش ـ هو سيد الموقف في كل شيء. لقد كان من الصعب تصور عالم آخر غير عالم فجيج ومحيطها المباشر. لم تكن هناك إذاعة ولا ذكر لها ولا شبكة هواتف. أما الحافلة الوحيدة التي كانت تنقل الناس إلى بوعرفة فوجدة والتي كانت محطتها في قصر الوداغير فنادراً ما كان أطفال قصر زناكة على علاقة بها، فلم يكونوا يعرفون عنها شيئاً سوى أنها تحضر

وتغيب مثلها مثل القطار الذي كان يمر ببني ونيف. وبالجملة فالحافلة والقطار كانا بالنسبة لوعي الأطفال دون العاشرة من أبناء جيل صاحبنا عبارة عن كائنات تحضر وتغيب كالزوابع والفيضانات وأصحاب الجمال من «العرب» الذين كانوا يأتون بالملح وخشب العرعار والأقط (جبن يابس): بضاعة يبيعونها في ساحة «تاشرافت» التي تحيط بها المنازل والأزقة على شكل هلال من الغرب والشمال والشرق، بينما تحدها من الجنوب المقبرة و «دار الجماعة»، يفصلهما عن بعضهما الطريق الذاهب إلى مقر «الديوانة» (الجمارك) فحقول النخيل بتاغيت ومنها إلى بني ونيف. وكانت هذه الطريق في الأصل جزءاً من مجرى وادي «إيبوشليقن» الذي يشق طريقه من الشمال الغربي بمحاذاة قصر زناكة إلى تاغيت على الجنوب الغربي.

كان هذا الوادي يابساً لا يفيض إلا نادراً. وكان سكان زناكة قد أقاموا سداً من التراب والأحجار تصرف مياهه، حين العواصف الرعدية التي تشهدها المنطقة من حين لآخر، إلى الجنوب خارج المنازل والبساتين. ولكن قد يحدث أن يتآكل السد بفعل الرياح ومرور البهائم، فإذا هبت عاصفة رعدية مباغتة وفجرت عيون السماء تفجيراً، رأيت شباب زناكة وكهولها في حالة تعبئة عامة. فمياه الوادي تهجم بعنف وقوة لتشق طريقها عبر أزقة قصر زناكة خاصة حي «إدريت» الذي يمتد على ضفاف الوادي. وإذا تمكنت المياه الغاضبة الهوجاء من تحطيم «القناطر»، فإنه الطوفان. مياه الوادي تسوق معها أعجاز النخل وتقتلع الأشجار فضلاً عن أشياء أخرى يُلقي بها أهل المدينة خارج مدينتهم لكونها فقدت كل وظيفة أو فائدة. وربما كان اسم هذا الوادي مشتقاً من اسم هذه الأشياء التي يلقى بها في المزابل أو ما في معناها والتي تسمى بالأمازيغية «إيشليقن» (القطع الممزقة من صوف أو غيره).

كان فيضان هذا الوادي من الحوادث النادرة، ولا يذكر صاحبنا أكثر من مشهدين لهذا الفيضان خلال طفولته الأولى. وأبرزهما ذلك المشهد الذي ارتبط في ذهنه بعمود «الدبيش» (التليفون) الذي كان منصوباً فوق أرض بستان من بساتين أهل أمه يقع في منطقة «فتوحة» الواقعة بين «الديوانة» و «بغداد». كان وادي «إيبوشليقن» يمر أمام مقر الديوانة تحت قنطرة. وكان للديوانة خط تليفون، لعله الخط الوحيد بقصر زناكة يومئذ. كان رجال الديوانة أجانب عن فجيج، جزائريين أو فرنسيين، يقومون بدوريات، ضد التهريب، على الحدود مع الجزائر. وعندما فاض الوادي، في المرة التي يتذكرها صاحبنا بوضوح، كانت المياه غزيرة وعنيفة هدمت القنطرة وأسقطت عمود التليفون المنصوب بالقرب منها أمام مقر الديوانة.

كان لسقوط عمود التليفون والاسلاك المعلقة عليه وقع خاص في نفس صاحبنا. إنه لا يزال يذكر ما انتابه آنذاك من قلق على خاله الذي كان يعمل في قطاع السدود بالجزائر. لقد كان ـ وعمره يومذاك حوالى السابعة ـ يصحب جده لأمه إلى بستانه بـ «فتوحة»، وكانت تلك من المناسبات التي تتيح له «العيش» مع خاله خارج فجيج وقصورها وجبالها: ذلك أنه، طوال الوقت الذي يمكث فيه جده في الحقل، لم يكن يفارق عمود التليفون المنصوب على الطريق جنب الحقل. كان يعانق عمود التليفون واضعاً أذنه عليه ثم يدق عليه بحجر فيسمع رنيناً، هو رنين الأسلاك بفعل الاهتزاز. كان يتنصت لهذا الرنين و «يتكلم» من خلاله مع خاله المقيم بالجزائر: كان يسأله عما يفعل وعن موعد عودته ويطلعه على أخبار الأهل والدار. كان يسأل ويتولى بنفسه الجواب على أسئلته، نيابة عن خاله بـ «توسط» رنين عمود التليفون وأسلاكه.

غير أنه في تلك المرة التي فاض فيها وادي «إيبوشليقن» واقتلع العمود المنصوب أمام الديوانة وتقطعت الأسلاك لم يعد صاحبنا يسمع نفس الرنين عند معانقته للعمود المنتصب أمام حقل جده. لقد تصور أن خفوت الرنين وانقطاعه راجع إلى غياب خاله عن مكانه أو إلى إعراضه عن الحديث إليه أو إلى مكروه أصابه... ومن هنا ذلك القلق الذي ملأ عليه كيانه فاندفع يجري إلى جده الذي كان منهمكاً في تنقية الزرع من الأعشاب وصاح قائلاً: «خالي لا يجيب، خالي لا يجيب.. ماذا أصابه»؟

يذكر صاحبنا جيداً ابتسامة جده لأمه التي اتسع مداها حتى برزت أسنانه ناصعة البياض وسط الشعر الكثيف الذي يغطي وجهه. لقد كانت لحيته عريضة كثيفة ولم يكن يحلق وجهه بل يقتصر فقط على قص شاربيه قصاً خفيفاً غير غافل عن مشط لحيته يومياً، وخضبها بالحناء أحياناً. قال الجد لحفيده: «لا تقلق.. ألم تر أسلاك «الدبيش» مقطعة ملقاة على الأرض قريباً من قنطرة «الديوانة»...؟ إنهم سيصلحونها غداً أو بعد غد، وسيعود كل شيء كما كان».

كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة التي كانت ـ إلى ذلك الحين ـ تمكن صاحبنا من «الاتصال» بالعالم الخارجي.

بعد هذا الاتصال الوهمي بالعالم الخارجي يأتي الاتصال الفعلي. ويرجح صاحبنا أن ذلك كان في حوالى العاشرة من عمره. دليله أن سفره الأول إلى بوعرفة كان قبل افتتاح مدرسة النهضة المحمدية سنة ١٩٤٦. كان والده يتاجر في المواد الغذائية بين وجدة وفجيج وكانت بوعرفة مركزاً لتجارته. كانت تجارة ناجحة إذ كانت السلع تنقل على القطار من وجدة إلى بوعرفة وتشغل أحياناً عدة عربات، ومن بوعرفة توزع على المراكز الأخرى. وكانت ظروف الحرب العالمية الثانية ووقوع المنطقة على الحدود قد جعلا عنصر «التهريب» يلعب دوراً أساسياً في التجارة. وإذا أضفنا إلى ذلك أن يد والده كانت مبسوطة جداً وأنها طالت رجال السلطة الفرنسية بالمنطقة أنفسهم، استطعنا أن نقدر إلى أي مدى كانت تجارته ناجحة.

وعلى كل، فإن صاحبنا ما زال يذكر أنه جلس ذات يوم جنب والده القادم من السفر ينتظر أن يفتح حقيبته ليطلعه على ما اشتراه له من ثياب، وإذا بالحقيبة ـ وكانت متوسطة من النوع الخاص باللباس ـ لم يكن فيها شيء آخر غير الأوراق النقدية التي كانت مضغوطة فيها بصورة جعلت عدداً منها ينفلت عند فتح الحقيبة. كانت الجدة ـ والدة أبيه ـ جالسة أمام ابنها القادم من السفر. فلما رأت المشهد سارعت إلى جمع الأوراق وهي تتمتم: «باسم الله ما شاء الله» وبكلام آخر لم يكن صاحبنا يعرف له معنى، ولكنه يستطيع الآن أن يجزم أنه كان تعويذة من ذلك النوع الذي يقرأ لدرء «العين»، عين الحساد والفضوليين.

جلس صاحبنا مشدوهاً ينظر إلى أبيه وكأنه يسأله: «وأين الثياب الجديدة؟ أين الحلوى؟». وينظر إلى جدته التي كانت تطوف حول المكان منحنية تجمع الأوراق المالية، مستغرقة في أدعيتها وتعاويذها منادية على ابنتها طالبة المجمرة و «الفاسوخ» لـ «تبخر» البيت دفعاً للحساد من الإنس والجن. ومع أنه كان قد اعتاد على هذا النوع من «الباخور»، الذي كان يحلو له أن يتتبع خطى جدته وهي تقوم به ليراقب عين «الفاسوخ» وقد انفقأت وسط الرماد، فإنه هذه المرة شعر وكأن أحداً لم يهتم بوجوده. ولكي يكسر هذا الصمت الذي اقترن لديه بنوع من الإهمال له وقف وارتمى على أبيه يقبله دافعاً برجليه الحقيبة وما حولها من أوراق مالية وكأنه أدرك للمرة الأولى أن «الفلوس» تنافسه على أبيه. ويبدو أن الأب فهم «الرسالة» فاحتضن ابنه وربت على كتفيه وظهره وكلمه كلاماً فهم منه ما معناه: «جئت على استعجال

من الحانوت ما تشاء».

لا يذكر صاحبنا كيف كان شعوره بعد ذلك ولا «الأحلام» التي شغلته في اليقظة أو في المنام، ولكنه يذكر جيداً أنه في الصباح وقف إلى جانب عمه الأصغر الذي كان شاباً في نحو العشرين من عمره وهو يسرج الحمار الذي سيحمل الأب وابنه إلى محطة الحافلة بقصر الوداغير. كان العم بادي «الغضب» هذه المرة أكثر من العادة، فلقد كان من أولئك الذين تغلب عليهم الجدية في كل شيء حتى عندما يبتسمون، وكان هو المساعد لأبيه ـ جد صاحبنا ـ في أمور البستنة وغيرها من الأعمال في المنزل، وذلك على العكس من أخيه الأكبر ـ والد صاحبنا ـ الذي كان متفرغاً لتجارته يساعده فيها أخوه الأوسط الذي كان يحظى بعناية واهتمام من والدته ـ جدة صاحبنا ـ عناية زائدة، وذلك إلى درجة أن الجميع كان يتهمها بأنها تحابيه وتتركه على هواه. لقد كان ابنها المدلل، وكانت تعلل اهتمامها الزائد به بكونه عليل الصحة ضعيف البنية.. ومع ذلك فلم يكن هذا المبرر ليقنع أحداً، فالمحاباة كانت واضحة. وعلى كل، فغضب العم الأصغر لم يكن له هذه المرة علاقة بهذه «المحاباة». لقد سمعه صاحبنا يتمتم وهو يسرج الحمار بكلام فهم منه أنه كان على موعد مع أصدقائه من أبناء الحي للاحتطاب، وأن سفر أخيه، والد صاحبنا، سيجعله يتخلف.. وكان التخلف عن الموعد في مثل هذه المناسبات من أكره الأمور إلى نفوس الشباب. فلقد كان الخروج للاحتطاب من الأعمال التي يحقق الشاب فيها ذاته خصوصاً والمناسبة تسمح بالتباهي بالدابة وسرعتها وبحزمة الحطب وإتقان وضعها.

كان حمار العائلة عزيزاً على عمه فكان يهتم به اهتماماً زائداً. كان أشهب اللون جميل المنظر رشيق القوام هادىء الطبع ـ على العكس تماماً من حمار خاله ـ وكان مربطه داخل الدار، فكان واحداً من الأسرة مثله مثل النعاج الثلاثة وصغيراتها التي كانت حظيرتها في الجانب الآخر من صحن المنزل. وفوق مربط الحمار وحظيرة النعاج أقيمت «سدة» (= سقف من العيدان يتوسط الأرض وسقف الغرفة) يختزن فيها الحطب الذي كان هذا العم يجلبه على حماره في رحلات أسبوعية أو نصف شهرية يقوم بها هو وأصحابه من شباب الحي إلى الوديان البعيدة يحتطبون مما فيها: شجر العرعار وغيره من النباتات الصحراوية الصالحة كوقود.

كانت الرحلة الواحدة تستغرق معظم اليوم، إذ يخرج الشباب في منتصف